الباب الأول

بواكير الشخصية المصرية فى الأدب العربى

* مسيرة الأدب العربى فى مصر .
* ظهور بواكير الشخصية المصرية فى الشعر .
* ظهور بواكير الشخصية المصرية فى النثر .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مسيرة الأدب العربى بمصر

مصر واحدة من الأمم القليلة التى تخلت نهائيا عن لغاتها القومية قبل الإسلام لتحتضن اللغة العربية ، لا باعتبارها لغة الفاتح المنتصر ، فلقد غزاها الرومان من قبل ولم تصبح اللغة اللاتينية لغة المصريين ، ولا باعتبارها لغة الأدب والشعر والحكم والأمثال فالشخصية المصرية لا تجنبها هذه الأمور ولم تبدع فيها يوما من الأيام إبداعها فى مجالات أخرى . وإنما أقبلت مصر على اللغة العربية إقبالها على الإسلام ومحاولة فهمه ، ثم التعمق فيه تعمقا يلائم طبيعتها التى وضحت معالمها سلفا (١)

ولقد سار التعريب فى مصر وئيد الخطى ولكنه كان راسخا رسوخ الطود ينتقل من أطراف الصحارى ليتغلغل فى أعماق المدن والقرى عازما على ألا يبقى معه غريم أو منافس حتى إذا ما استوى على عوده ، وتمكنت جذوره من الارتواء ذاتيا من عروق النيل الممتدة فى باطن أرض مصر أينعت ثمارا مختلفة الألوان والمذاق .

ومصر فى موقفها من التعريب تختلف اختلافا جوهريا عن إيران والهند وتركيا كما تختلف بعض الاختلاف مع بلدان الشمال الأفريقى فلم يمض على تعريب كل من مصر وإيران سوى عدة قرون حتى طالعنا شاعر الوطنية الإيرانى « الفردوسى » بملحمته « الشهنامة » منظومة باللغة الإيرانية الحديثة . وفى الوقت نفسه كان أقباط مصر يتخلون عن القبطية ويستبدلون بها العربية فى شئونهم اليومية بل والدينية أيضا . وقد شرع بعضهم فى كتابة تاريخ القبط وبعد أن كتب القديس « شنودة » مؤلفاته باللغة القبطية عمد إلى ترجمتها إلى اللغة العربية ليتسنى للأقباط قراءتها . وفى القرن الرابع الهجرى كان المثقف المصرى يفتخر بمعرفته اللغة القبطية . وأصبحت القبطية شبه غريبة فى موطنها الأصلى . فالمسعودى يلتقى

---

(١) أنظر هذا الكتاب ص ٥٢ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ص ٢١ .

فى مصر ببعض علمائها من القبط ويسألهم عن معنى كلمة « فرعون » فلم يخبره أحد [١] .

وهكذا ظلت القبطية تتقوقع أمام انتشار اللغة العربية حتى قصر استعمالها على الأديره [٢] .

وفى القرن العشرين وبعد مضى أكثر من ثلاثة عشر قرنا على تعريب الشمال الأفريقى ما تزال قرى بأكملها فى منطقة بلاد « القبايل » تتحدث باللغة البربرية مع أن جميع أهلها مسلمون ومعظم رجالها يعرفون اللغة العربية أما نساؤها فقليل منهن من يعرفها . إن علاقة الشخصية المصرية باللسان العربى تنبىء عن بعض مقومات شخصيتها وأهمها تأثير البيئة الطبيعية والنزعة الدينية .

ولقد تناول الباحثون فيما تناولوه من دراسة مصر القديمة الحديث عن شخصيتها الأدبية وسجلوا لها أعمالا مختلفة منها الأساطير كأسطورة (إيزيس وتوابعها) ، و(بين هلاك البشرية وإنقاذها) ومنها القصص كقصة (سفرو والحكماء) ، و (نجاة الملاح) و (سنوحى) ومنها أدب النصائح التى كتبها (بتاح حتب) و(أمتحوبى) ، و(عنخ شاشنقى) ، ومنها الشعر الغنائى فى المديح والهجاء والأناشيد الدينية والتعليمية والغزل والغناء .

وقد اتصفت هذه الأعمال بصدقها فى التعبير عن الروح المصرية وتمثيلها لخصائص البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وتشابه بعض ملامحها مع غيرها من آداب الأمم القديمة ، فى وضوح التأثير الدينى ، وكثرة التكرار وصعوبة التفرقة بين الأسلوب الشعرى والأسلوب النثرى ، وتشابه بعض صورها مع غيرها فى التعبير عن الغرائز والعواطف الإنسانية [٣]

ومهما تكن قيمة هذه الأعمال فإنها لم تلعب دوراً هاماً فى تألق الشخصية المصرية بين الأمم القديمة ، ولم يكن لها تأثير أو قيمة فى الآداب العالمية مثلما كان لبعض الفنون الأخرى كفن العمارة المصرية القديمة وما يشير إليه من دلالات فكرية وعلمية واجتماعية . فأين شهرة ما أنتجته مصر من محاولات فى أدب الفروسية خلال الحكم الرومانى [٤] ، إذا قارناه بما أنتجه الشعراء الفوارس الجاهليون ؟ وما قيمة الأدب النسائى الذى سجلته مارية وصيفة ، أرمانوسة

---

(١) الأدب العربى فى مصر من الفتح الأسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى . د . محمود مصطفى ص ٣٠ .
(٢) تاريخ الشرق الأدنى القديم . د عبد العزيز صالح . ص ٣٢٥ .
راجع : القصص والحكم والتأملات فى أدب القراعنة : جـ ١ سليم حسن . القاهرة ١٩١٥ م .
(٣) مصر من الأسكندرية الأكبر حتى الفتح العربى . هـ . أيدرس بل . ص ٣٢ ، وما بعدها .
(٤) وحى القلم . مصطفى صادق الرافعى ص ١٩ وما بعدها . جـ ١ ط ٨ . بيروت .

التعبير عن مشاعر الأنوثة – أين قيمته وشهرته إذا قورن بآثار الشاعرة العربية الخنساء التى عاصرت الشاعرة المصرية ، وإن اختلفت البيئتان واللغتان ، ثم أين ما خلفته مصر القديمة من أدب له قيمته العالمية إذا ما قورن بما خلفته أمة عريقة كالأغريق التى عبرت عن شخصيتها الأدبية بأعمال خالدة كإلياذة « هوميروس » وغيرها ؟

حقا إن ما وصلنا من الأدب المصرى القديم قليل بالنسبة لما كان ينتظر من أمة عريقة بلغت شأوا بعيدا فى التطور ، ومع ذلك يبقى هذا القليل ضئيل القيمة والشهرة عند مقارنته بغيره من الفنون المصرية ، أو مقارنته بغيره من آداب بعض الأمم القديمة . وإن كان بعض الباحثين يؤكد أصالة هذا الأدب وصدقه فى تمثيل الروح المصرية (١) .

ويكتسى الأدب المصرى ثوباً جديداً بدخوله مرحلة التعريب ، شأنه فى ذلك شأن مختلف ألوان أنشطة الحياة المصرية ، واللغة العربية كما هو معروف عنها – لغة فصاحة وأدب وشعر ، وربما كانت تلك أهم مميزاتها ولا سيما فى الفترة التى بدأت عندها عملية تعريب مصر ، فلم تكن اللغة العربية فى تلك المرحلة لغة فنون وعلوم ، ولم يكن قد تحرك فيها اللسان الأجنبى فيفسد فصاحتها . ومع ذلك فإن الشخصية المصرية لم تنجذب إلى هذا الجانب الحضارى بقدر انجذابها إلى جوانب أخرى وبذلك ظل أدبها العربى أقل شأنا من أدب أمة أخرى مستعربة كالفرس مثلا ، وأقل شأناً من شخصيتها العلمية التى فاقت غيرها فى ميدان العلوم الدينية ، كالتفسير والقراءات والفقه والحديث وعلوم التاريخ والقصص ، والسير ، وأثمرت فيها ثمرات ما زالت شاهدة على تفوقها فى الوقت الذى لها مثل هذه الآثار فى الحياة الأدبية .

وقد مر الأدب العربى بمصر بأطوار عدة . لكن مسيرته فى عصوره كانت مختلفة تماماً عن مسيرة الأدب العربى فى غيرها من الأقطار الأخرى من حيث القوة والضعف ، وما يتبع ذلك من دلالة الأدب على الشخصية والتعبير عن متطلبات البيئة والعصر والإنسان . ولقد تأخر ظهور الأدب العربى بمصر تأخراً ملحوظاً إذا قورن بظهوره فى مصر من الأقطار الأخرى وذلك للأسباب التالية :

أولاً : لم يكن للبيئة المصرية سابق عهد بمعرفة اللغة العربية أو استخدامها قبل الفتح العربى وظلت فترة غير قصيرة عاجزة عن التعبير بهذه اللغة عن متطلباتها ، فضلا عن إنشائها

---

(١) سند باد مصرى : د . حسين فوزى ص ٢٨٦ .

أدباً يصور شخصيتها . ومصر من هذه الناحية تختلف عن الشام والعراق ، فقد كانت باديتاهما عربية اللسان قبل الإسلام مما أعانهما على الانطلاق اللغوى فى فترة مبكرة من الفتح العربى . ومعنى هذا أن بيئة مصر اللغوية لم تكن قد تهيأت بعد لإنتاج الأدب العربى إنتاجاً يعبر عن سماتها . وإزدهار الأدب فى جميع الامم وعلى مر العصور يتوقف على صلته بجمهوره ، فكلما وجد الأدب صداه فى البيئة التى ولد فيها نما وازدهر وكلما ابتعد جمهوره عنه انعزل واضمحل وفنى .

ثانياً : ركزت مصر اهتماماً ملحوظا على الجانب العلمى فى الثقافة الإسلامية ، منذ بداية تعريبها ، وقد أشرت إلى أن العلوم الدينية قريبة من طبع الشخصية المصرية ، ولذلك تكيفت معها وأبدعت فيها إبداعاً مبكراً . ومن ثم كان النثر العلمي أسبق ظهوراً فى البيئة المصرية من النثر الأدبى ومن الشعر أيضا . ولأمر ما ، كانت نهضة النثر العلمى فى مصر سابقة على غيرها من فنون القول فى النهضة العربية الحديثة ، بينما كانت نهضة النثر الأدبى هى السابقة على غيرها فى لبنان :

ثالثا : لم يتوفر لمصر نوع من الاستقلال الذاتى أو الاستقرار السياسى أثناء فترة الولاة الذين كانوا يتناوبون الحكم فترات وجيزة ، لم يتمكنوا من تأسيس بيئة أدبية كسائر البيئات التى تكونت فى ظل استقرار الأوضاع السياسية (١) . وإن كان نصيب الشخصية الوطنية قليلا ، فى انتاج هذه البيئات لارتباط الأدباء عادة بأشخاص معينين هم ذوو الجاه والسلطان فى الدولة ، لكن هذا الارتباط لا يعوق وضوح الشخصية الإقليمية فى إنتاجهم ، ولا يخفى دور تشجيع الحكام فى نمو الأدب وازدهاره خاصة « الشعر العربى ، وفى كل عصوره قبل العصر الحديث . ولكن هذه البيئات أخذت طريقها إلى التحول مع بداية الحكم الطولونى لمصر سنة ٢٥٤ هـ ، وجدت عوامل أخرى كانت وراء ظهور بواكير الشخصية المصرية فى الأدب العربى ، وأهم هذه العوامل :

١ – وضوح الشخصية السياسية على أثر استقلالها عن الخلافة العباسية على يد أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ ثم على أيدى الإخشيديين سنة ٣٢٣هـ .

---

(١) لم يستقر الولاة فى مصر فترات طويلة خاصة فى العصر العباسى فقد حدث أن تولى حكم البلاد المصرية ثلاثة ولاة فى عام واحد (٢١٩ هـ) وبلغ عدد الذين تولوا مصر فى خلافة « هارون الرشيد » وحده نحو اثنين وعشرين واليا .

ولم تكن مصر وحدها هى الدولة التى استقلت عن الإمبراطورية العباسية ، فقد انفصلت دولة الأمويين فى الأندلس والبويهيين فى فارس ، والأدارسة والأغالبة فى المغرب . وتبع هذا الانفصال تنافس شديد بين حكام هذه الإمارات وحاولت كل دولة أن تحنو حنو بغداد فى ذيوع شهرتها وارتفاع مكانتها .

وكان الأدب بصورة عامة والشعر على وجه الخصوص أكبر وسائل الإعلان فى تلك العصور ، وأراد الطولونيون منافسة العباسيين ، فى الإغداق على الشعراء وتقريب العلماء ، وطمعوا فى أن يجعلوا من مدينة « القطائع » عاصمتهم بمصر مدينة يشيد بها التاريخ كما أشاد ببغداد فبذلوا العطاء وأكثروا من الهدايا ، وكونوا حولهم بلاطاً أدبياً أشبه ما يكون ببلاط العباسيين ، فأنتجت هذه الحياة فى مصر أيام الطولونيين شعراً كثيراً ، واجتمع فى مصر عدد كبير من الشعراء حتى بالغ القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى عددهم إذ نقل عنه المقريزى أنه قال فى كتابه « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » رأيت كتاباً قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون . قال فإذا كان أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فكم يكون شعرهم ؟ .

ومهما يكن من أمر عدد شعراء الطولونيين ، فقد صوروا جوانب من الحياة المصرية تلقى أضواء على الشخصية المصرية فى أدب هذه الفترة .

وربما فاق اهتمام الطولونيين بالنثر اهتمامهم بالشعر ، فأحمد بن طولون ، كما يقول القلقشندى : أول من أخذ فى ترتيب الملك وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ، ولما شمخ سلطانه وارتفع بها شأنه ، وأخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات [1] . وآثر ابن طولون أن يتخذ كتابه من المصريين ، وإن لم يبلغوا مبلغ غيرهم فى فن الكتابة وكانت فلسفته فى ذلك ، إن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع له فى ذلك البلد ، أمور صالحة ، منها أن يكون بطانة الكاتب وحاشيته فى ذلك البلد ، فيعود مرفقه على فريق من أهله ، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون فى خدمتى[2] . وقد أدت فلسفة ابن طولون ومن سلك دربه إلى إتاحة الفرصة أمام

---

(١) صبح الأعشى جـ١ ص ٢٨ .

(٢) سيرة أحمد بن طولون ، لأبى عبد الله البلوى . تحقيق محمد كردعلى . ص ١٥ ، دمشق ١٣٥٨ هـ .

المصريين أن يمارسوا هذا الفن في أكبر مسارحه ، فأبدعوا فيه في وقت مبكر ، وظهر بعض الكتاب المصريين أيام الطولونيين من أمثال جعفر بن عبد الغفار .

٢ – ظهور جيل من المصريين تشرب الحياة المصرية وأتقن اللغة العربية ، في مدرسة الأدب التي أنشأها كبار شعراء العربية وأدبائها الوافدين إلى مصر الزائرين والمقيمين خلال القرنين الأول والثاني للهجرة ، كما كان لأحفاد كاتب العربية المعروف « عبد الحميد بن يحيى – كاتب مروان بن محمد آخر خليفة أموي – دور في تنشيط الكتابة الديوانية بمصر حيث استقروا بها . وبرز من بينهم كتاب من أمثال الحسن بن محمد أبي المهاجر واخوته ، علي ، وأبو القاسم ، وأبو عيسى وكلهم من نسل عبد الحميد الكاتب الذين نشأوا بمصر فتشربوا الحياة المصرية وعدوا منها » (١) .

٣ – وهناك عامل هام له أثره في ظهور الشخصية المصرية في الأدب العربي ، وهو أن ملامح البيئات الإقليمية أخذت طريقها إلى الظهور والتأثير في الشعر العربي بصورة عامة ، وإن اختلف وضوح تأثير بعض البيئات عن بعضها الآخر .

وفي القرن الرابع الهجري بلغت النهضة الإسلامية أوج عظمتها ، وأخذت مصر موضع الصدارة في العالم الإسلامي بما تهيأ لها من أسباب داخلية وخارجية ، إذ بدأت دولة الفواطم فتية في مصر واستطاعت أن تضم إليها بلداناً من الشرق والغرب ، وفي الوقت نفسه كانت هيبة الخلافة العباسية في بغداد تضعف شيئاً فشيئاً ، وظهر خطر الصليبيين يهدد المنطقة العربية بأسرها . وأخذت مصر بحكم الموقع والموضع والخصائص البشرية تتحمل شرف الريادة في الدفاع ، وتجمعت بكل طاقاتها خلف المصلحين من زعماء المسلمين . وكانت اللغة العربية في مصر قد استقرت لغة تعامل وتعبير عن متطلبات الحياة بمختلف شئونها وتجمعت عوامل أدت إلى نبوغ الأدباء المصريين ، فأخذوا دورهم في تصوير حياتهم عاكسين في إنتاجهم مؤثرات بيئتهم بما انطبع في أذهان كل منهم . وما كان لهم أن يتفقوا في نظرتهم نحو الأشياء ، وما كان للأحداث أن توزع آثارها بقدر واحد على جميع الناس . ومع ذلك فهناك تيارات واتجاهات تجمع الشتيت حولها تقارباً أو تنافراً ، وتعكس لنا بذلك سمات الطابع القومي أو الشخصية بالمفهوم الجماعي .

---

(١) الوزراء والكتاب . لأبي عبدالله محمد الجهشياري ط ١ القاهرة ١٩٣٨ ص ٨٢ .

وإذا كان العصر الفاطمى هو العصر الذهبى للأدب العربى بمصر ، فإن عصر الأيوبيين كان امتداداً لهذا الازدهـــار أو العصـــر الفضى للأدب كما أطلق عليه المستشرق الإنجليزى (جب) GIBB .

وقد تشابكت عدة عوامل محلية وعالمية وانصهرت فى البيئة المصرية ، لتصبح أشعة تلقى أضواءها على الشخصية المصرية .

وأهم هذه العوامل :

أولا : تمييز الطابع المصـــرى :

مضت أربعة قرون قبل هذه المرحلة ، تصارعت فيها ظواهر وكائنات أسفرت عن وجود شعب عربى مصرى له أسلوبه فى حياته ، وله عادات وتقاليد ونظم ولغة استقرت عليها الحياة فى هذه البيئة بعد شوط طويل .

وهذه مصر فى القرن السادس الهجرى ، كما يصورها « أبو صلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى » وقد زارها فى أواخر العصر الفاطمى : « أخلاط من الناس مختلفة الأصناف بين قبط وروم وأكراد وديلم وحبشان وأرمن وغير ذلك من الأصناف والأجناس . (١) جاءوا للتجارة أو الحج أو طلب العلم ، أو تولى المناصب ، أو الخدمة فى الجيش أو غير ذلك ، ولكنهم جميعا مصريون مصرتهم مصر بما لديها من إمكانيات سبق الحديث عنها ، وأصبح السابق من الوافدين قدوة للاحق فى التمصير . ويكفى أن أضرب لذلك مثالا عبرت فيه إرادة التمصير عن وجودها بصورة بينة ، وهو أن خلفاء مصر الفاطميين سموا بـ (المصريين) . وأصبح هذا الاسم مستعملاً ومعروفاً للدلالة على الخلفاء الفاطميين . فها هو « العماد الأصفهانى » يتحدث عن أحد الشعراء فيقول : وما أكمله لولا أنه من مداح المصرى » (٢) .

ثانيا : قوة النفوذ السياسى :

أخذت قوة هذا النفوذ شكل تمدد جغرافى لحدود مصر السياسية سواء فى العصر الفاطمى أو الأيوبى ، فالقاهرة الفاطمية عاصمة لبلدان الشام والحجاز وبعض أجزاء الجزيرة العربية والشمال الإفريقى . ولئن تقلصت هذه الحدود فى أواخر الحكم الفاطمى وفقدت القاهرة

(١) الرسالة المصرية . لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى ، ص ٣٣ .

(٢) الخريدة ، ص ٥ .

سيطرتها على جزء من توابعها ، فلقد شمرت عن ساعديها الفتيتين مع احتفائها بالبطل الأيوبى ، وراحت تبسط يدها من جديد على بلدان انتزعتها من أيدى الصليبيين ، أو المسلمين المستضعفين ، وكتب العماد الأصفهانى رسالة على لسان « نور الدين » وبعثها إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله يخبره بإحياء حركة السنة ومواجهة الأعداء وامتداد سلطان مصر إلى بلاد النوبة وجزء من الشمال الأفريقى فيقول : « من جملة حسنات هذه الأيام الزهراء ماتسنى فى هذه النوبة ، من افتتاح بعض بلاد النوبة والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الإسلامية فى العصـــور الخالية وكذلك استولت عساكر مصر أيضا على برقة وحصونها وتحكموا فى محكم معاقلها وحصونها حتى بلغوا إلى حدود المغرب ، فظفروا من لسؤال بعنقاء مغرب »(١) .

وادركت مصر أن مسيرة النضال نحو تحرير الأرض العربية من الصليبيين لن تكتمل إلا بسيطرتها على الشام ، فاتجهت نية صلاح الدين إلى ضمها ، وكانت ما تزال تحت أيدى الزنكيين الذين تربى صلاح الدين فى كنفهم وأتى مصر موفداً من قبلهم ، فبعث إليه « ابن المقدم » رسالة يقبح له نيته فى الاستيلاء على الشام ، فأجابه صلاح الدين على لسان القاضى الفاضل : « إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم ، وللبيت الأتابكى أعلاه الله تعالى إلا ما حفظ أصله وفرعه ، ودفع ضره وجلب نفعه ، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة . وبالجملة إنا فى واد ، والظانون بنا ظن السوء فى واد ، ولنا مـن الصلاح مراد ولن يبعدنا عنه مراد ولا يقال من طلب الصلاح إنك قادح ، ولمن ألقى السلاح إنك جارح »(٢) .

ومضت مصر إلى غايتها وبسطت نفوذها على الشام لتوحد راية الإسلام فى أشرف نضال وراح أبناء البيت الأيوبى يوسعون حدود مصر السياسية ، فهذا عمارة اليمنى يحث صديقه وممدوحه (الملك المعتصم شمس الدولة) أخا صلاح الدين على السير إلى اليمن (٣) ليستولى عليها قائلا :

---

(١) كتاب الروضتين ، لأبى شامة ، جـ ١ ، ص ٥٤٧ .

(٢) كتاب الروضتين . لأبى شامة ، جـ ١ ، ص ٥٩٧ .

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، جـ ١١ ، ص ٣٩٦ .

ضاقَ الصَّعيدُ على جيادِك بعدَما ضمنَّتْ صعادُك فتحَ كلِّ صعيدِ
والغربُ واليمنُ القصيدةُ أهلُهُ من خَوفِهم في قائمٍ وحصيدِ
والسَّيفُ يلمعُ في الخواطرِ برقُهُ بالسَّيفِ من عدنٍ وأرضِ زبيدِ
فإلى متَى أيدى الكماةِ معوقةٌ عن نشرِ ألويةٍ ونشرِ بُنودِ
ومعاطفُ الخيلِ الخفافِ إلى العِدى تشكو خِفافَ أيدَّةٍ وأبودِ
أفلا رميْتَ بها الغُلاةَ مُجرَّداً عزماً تسدُّ به عِراصَ البيدِ (١)

وتم للشاعر عمارة اليمنى وممدوحه ما أراد . قال العماد ،

« توجه تور انشاه ، أكبر إخوة صلاح الدين ، إلى اليمن فملكها . وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمنى شاعر القصر ، وكان كثير المدح لتور انشاه ، فتجهز وسار إلى مكة ثم زبيد فملكها وقبض على الخارجى بها ، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى إلى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلى ، وفتح حصن « تعز » وغيره من القلاع ، ففتح إقليما ومنح ملكاً عظيماً ، واقترع بكراً وأشيع ذكراً .. »

قلت : فمن جملة شعره فى ذلك قوله فى القصيدة التى أولها :

العلمُ مذْ كانَ محتاجٌ إلى العَلَمِ وشفرةُ السَّيفِ تستغنى عن القَلَمِ
كم تترك البيضَ فى الأجفانِ ظامئةً إلى المواردِ فى الأعناقِ والقِمَمِ
أمامَك الفَتحُ من شامٍ ومن يمنٍ فلا تردُّ رءوسَ الخيلِ باللجَمِ
فعمُّك الملكُ المنصورُ سُمِّيَهَا من الفراتِ إلى مصرٍ بلا سأمِ
فاخلِقْ لنفسِك مُلكاً لا تضافُ به إلى سواك ، وأورِ النارَ فى العلمِ (٢)

وهكذا ، فرضت شخصية مصر السياسية والحربية وجودها بين أشقائها المسلمين لتخوض قتالا تثبت فيه وجودها بين الأصدقاء والأعداء . وربما أعانها على بلوغها هذه المكانة السياسية ، ما أصاب الخلافة العباسية فى بغداد من ضعف جعلها مطمع الطامعين ، بعد أن استبد رجال القصر من السلاجقة الأتراك بالحكم ، وأخذت مكانة الخلفاء تزداد سوءاً ، ولم يعد

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٢١٣ .
(٢) كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٥٠٣ .

لهم من سلطة ترديد أسمائهم فى بعض المناسبات ، بينما كان الأمر كله بأيدى وزرائهم الأتراك .

ولقد مرت مصر فى أواخر العصر الفاطمى بمثل هذه الحالة ، حيث استبد بالحكم وزراؤهم منذ استنجد الخليفة المستنصر ببدر الجمالى ، واستدعاه من الشام لإخماد الثورة التى كانت بالقاهرة ، فلما فتك بالخصوم أشد الفتك استساغ هذا الأسلوب فى قمع الحريات ، فاستوزره الخليفة ، وما لبث الوزير أن استأثر بالحكم وحده دون الخليفة وسار الوزراء (الأرمن) الذين استبدوا بالحكم فى أواخر العصر الفاطمى على هذا النمط وبلغت المأساة قمتها فى النزاع بين الوزيرين « شاور » و« ضرغام » .

ولم يقدر لمصر أن تمضى طويلا فى هذا الطريق ، كما سارت بغداد ، فسرعان ما جددت مصر شبابها بدماء جديدة تمثلت فى الحكم الأيوبى ، فاستردت قوة شخصيتها السياسية التى جذبت إليها فيما بعد مركز الخلافة العباسية من بغداد ونقلتها إلى القاهرة ، ثم تصدت لخطر المغول ، وردتهم على أعقابهم .

ثالثاً : حفاوة الحكم بالأدب :

قدم الفاطميون مصر يدعون إلى عقيدة تختلف عما كان عليه أكثر المسلمين من أتباع الائمة (مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل) ، والفاطميون يتبعون مذهب فرقة من الشيعة عرفت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام « إسماعيل بن جعفر الصادق » وخلاصة القول فى عقائدهم ، أن الولاية هى محور هذه العقائد ، وأن فلسفتهم كلها تدور حول الإمام ، وتمجيده أكثر من أى شىء آخر ، وهم يعتقدون بكل ما يعتقد به غيرهم من المسلمين من موت وحياة وبعث ونشور وثوب وعقاب . يقومون بفرائض الدين ، ويحرمون ما يحرمه الله ولا يقولون بالتبطيل أو الإباحة ، ولم يعتقدوا التناسخ أو الحلول أو التلاشى ، غير أنهم قالوا بأدوار الأنبياء ، فلكل نبى دوره ، ويأتى النبى الذى بعده ينسخ شرع النبى قبله فلما جاء دور محمد وهو خاتم الأنبياء جمع الله له كل أدوار الأنبياء قبله ، فمحمد هو آدم وهو نوح وهو إبراهيم وهو موسى وهو عيسى ، وأن ما حدث فى أدوار هؤلاء الأنبياء يحدث مثله فى دور محمد ، وما حدث لأوصياء الأنبياء يحدث « لوصى محمد والأئمة بعده ، وأولوا ذلك تأويلا يتفق مع عقيدتهم هذه ، وتراه واضحاً فى أشعارهم ورسائل كتابهم » (١)

(١) فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٣٦ .

ولم يفرض الفاطميون هذه العقائد فرضا بقوة السيف ، وإنما استخدموا الدعاة والعلم في نشر مذهبهم ، وكان نصيب الأدب شعره ونثره في هذا الميدان كبيراً فاهتموا بهما ، فقد نقل المقريزي أنه كان للشعراء رواتب جارية من عشرين دينار إلى عشرة دنانير ، ويروى أيضا أنه في يوم عاشوراء كان يخرج الرسم المطلق للمتصوفين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم ، ويحدثنا المقريزي في كلامه عن بركة الحبش أنه كان بها طاقات ، عليها صور الشعراء ، كل شاعر وبلده ، وعلى جانب كل طاقة من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها أبيات من شعر الشاعر في المدح ، وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب ، وأن الخليفة الآمر بأحكام الله دخل هناك وقرأ الأشعار ثم أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا ، وأن يأخذ كل شاعر صرته بيده (١) .

وكانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية يغدقن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعراً جديداً في مدح الأئمة ، ويحدثنا عمارة اليمني أنه بعد أن أنشد قصيدته الأولى في مصر ، أخرجت له السيدة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار (٢) .

ويذكر المؤرخون أنه كان من بين الخلفاء الفاطميين من ينشد الشعر ، ومن شعر المنصور بالله يخاطب ابنه وولي عهده المعز لدين الله :

كتابي إليك من أقصى الغروبِ ... وشوقي شديدٌ عريضٌ طويلْ
أجوبُ القِفارَ وأطوي الرِّمالَ ... وأحملُ نفسي على كلِّ هُولْ
أريد بذاك رضاءَ الإلهِ ... وإعزاز دولةِ آلِ الرَّسولْ
إلى أنْ يرى السَّيرُ أجسامنَا ... وكلُّ الركابِ وتاه الدليلْ
وما ضقتُ ذرعاً ولكنني ... نهضتُ بقلبٍ صبورٍ حمولْ
وقد مَنَّ ذو العرشِ من فضلِهِ ... بفتحٍ مبينٍ وعزٍ جليلْ
وفي كلِّ يومٍ من اللهِ لي ... عطاءٌ جديدٌ وصفحٌ جميلْ
فلله حمدٌ على ما قضى ... وحسبيَ ربِّي ونعمَ الوكيلْ (٣)

(١) خطط المقريزي . جـ ٢ ، ص ٢٤٣ ، ٢٩٠ ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . للمقريزي القاهرة ، هـ ص ٣١٧ .
(٢) النكت المصرية . عمارة اليمني ، ص ٣٤ .
(٣) النجوم الزاهرة . لابن تغرى بردى ، جـ ٤ ، ص ١٣٢١ .

ويقول أبو المحاسن عن (العزيز) إنه كانت له فضيلة وله شعر جيد ، وروى الثعالبى فى يتيمته قول العزيز ، وقد وافق بعض الأعياد وفاة ابنه وعقد المأتم عليه :

نحنُ بنو المصطفى ذوو محَنٍ ... يَجْرَعُها فى الحياةِ كاظِمُنا
عجيبةٌ فى الدنيا محنُتنا ... أولُنا مُبْتلى وخاتمُنا
يَفْرَحُ هذا الورى بِعيدِهمُ ... طُرًا ، وأعيادُنا مآتمُنا (١)

وشارك وزراء مصر الفاطمية فى ازدهار الشعر ، فكان الأفضل يجلس بدار الملك التى أنشأها فى مجلس العطايا ، وقد أمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس ، من كل لون اثنان ، وجعل فى سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار فى كل ظرف خمسة آلاف ، فمن هذه الظروف كان يغدق فى عطاياه على الشعراء الذين كانوا يقصدونه ، ولعل أشعر وزراء الفاطمية وأكثرهم تودداً إلى الشعراء هو الوزير الملك الصالح « طلائع بن رزيك » ، فقد جمع شعره فى مجلدين كبيرين ، وجمع شعر الشعراء فيه ، فكان شيئاً كبيراً ، ولكن هذه الأشعار كلها فقدت ، ولم يبق منها إلا شذرات ، وكذلك كان الوزير الناصر العادل « رزيك بن الصالح » الذى وصفه عمارة اليمنى بقوله : « وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثيب عليه ، فسوق الشعر قد ازدهرت فى عهد الوزراء كما كانت مزدهرة فى عهد الأئمة .

وقد عنى الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشعراء ، وذلك لأن اتساع ملكهم وتشعب نواحى حياتهم وسلطانهم اضطرهم إلى أن يوجهوا همتهم إلى العناية بالدواوين المختلفة عناية خاصة ، تتناسب مع غلوهم فى إظهار مجدهم ، ودعاية لهم عند شعوب العالم كله .

فهذا التشريف الذى جعله الفاطميون لكتاب دولتهم كان من أهم عوامل ازدهار الكتابة فى عصرهم ، وكان من أسباب كثرة إقبال الناس على التعليم وإجادة الكتابة ليصلوا إلى مرتبة الكتابة فى الدواوين الكثيرة التى رتبها الفاطميون حتى يتسنى لهم تحقيق أطماعهم فى سيادة العالم الإسلامى ومباهاة الدول المناوئة لهم بعظمة دولتهم . وكان وزراء العصر الأول من الحكم الفاطمى بمصر يختارون من رجال القلم الذين ترأسوا الدواوين قبل اختيارهم للوزارة ، « فجوهر الصقلى » كان كاتباً من كتابهم ، و« يعقوب بن كلس » والفلاحى والجرجائى

---

(١) (أ) يتيمة الدهر ، الثعالبى . جـ ١ ، ص ١١٣ .

(ب) النجوم الزاهرة « لابن تغرى بردى » ، جـ ١ ، ص ١١٣

واليازورى وغيرهم ممن تولوا الوزارة ، كانوا كتاباً فى الدواوين ، أما فى العصرين الثانى من الحكم الفاطمى فكان الوزراء يختارون من رجال السيف ، وظل الكتاب يتمتعون بمثل مركزهم الرفيع ، فكان منهم جلساء الخليفة وحجابه ، ومنهم القضاة والدعاة وهذه كانت أرفع مناصب الدولة بعد الوزراء ، ومعنى هذا كله أن الفاطميين عنوا بالكتاب عناية خاصة لحاجتهم إليهم فى تسجيل كل دقيقة وعظيمة ، فخروج الخليفة إلى الصلاة أو فى الأعياد والمواسم ، وتعيين الوزراء والكتاب والقضاء والدعاة وغيرهم من أرباب الوظائف وحضور رسول من قبل دولة من الدول أو غير ذلك من الأعمال التى كانت تصدرها سجلات من الدواوين فيها من فن الكتابة صور رائعة تمثل العصر أصدق تمثيل (١) .

ويصور القلقشندى موقف الخليفة الفاطمى من كتاب ديوان الإنشاء وحالة هذا الديوان بقوله : « لما ولى الفاطميون الديار المصرية ، صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه ، فارتفع بهم قدره وشاع فى الآفاق ذكره ، وولى ديوان الإنشاء عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ، ما بين مسلم وذمى فكتب للعزيز بالله بن المعز أبو المنصور بن سوردين النصرانى ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ، ومات فى أيامه ، فكتب للحاكم القاضى أبو الطاهر الهزكى .. وكتب للخليفة المستنصر القاضى ولى الدين خيران ، ثم تولى الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله من الوزارة ، وأبو السعيد العميرى وكتب للآمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن على ابن أبى أسامة الحلبى ، إلى أن توفى فى سنة اثنين وعشرين وخمسمائة ، فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفى فى أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرئاسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجد البصرى المعروف بابن الصيرفى ، والقاضى كافى الكفاة محمود بن القاضى الموفق أسعد بن قادوس ، وابن أبى الدم اليهودى ، ثم كتب بعد الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أسامة المتقدم ذكره القاضى الموفق ابن الخلال أيام الحافظ ، وإلى آخر أيام العاضد ، القاضى الفاضل البيسانى ، ثم شرك للعاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الملك محمود بن الأنصارى ، وكان فى أيامه القاضى المؤمن

---

(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢١٠ وما بعدها .

كاسيبو ، ثم كتب القاضى بين يدى الموفق بن الخلال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم (١).

وقد هيأ الفاطميون فى مصر بهذا الأسلوب مناخا أدبيا خصبا ، لم يجد الأيوبيون بدا من الحفاظ عليه ورعايته تمكيناً للخطة التى وضعوها لمحاربة المذهب الشيعى ، فكما لجأ الفاطميون إلى الأدب لبث تعاليم الشيعية لجأ الأيوبيون لنقض ما بناه خصومهم إلى الأسلوب ذاته ، وهكذا تعهدت الأدب المصرى دولتان قويتان تعاقبتا فى رعايته وإن اختلفت أهداف كل منهما عن الأخرى فى الاهتمام به ، ويروى عن بعض الحكام الأيوبيين تعلقهم بالأدب وتذوقهم للشعر . وكان صلاح الدين كثيرا ما يستدعى بعض مقربيه ويطلب إليه أن يقرأ عليه فى ديوان أحد الشعراء ، وكان ديوان ابن منقذ الشاعر الشامى المعاصر من أفضل الدواوين لديه ، كذلك كان ابن منقذ نفسه ، فقد حظى بعطفه فى أواخر أيامه ، وكان الشاعر قد بلغ من العمر مرحلة الشيخوخة .

واشتهر « تاج الملوك بورى » أخو صلاح الدين الأصغر بشغفه بالأدب ، ومنادمة الأدباء حتى روى ابن خلكان أنه ترك ديوانا من الشعر ، ومنه قوله :

آه مِـن وردِ خدِّيـكَ بالمِسْـكِ مُنقَّـطْ
بيْنَ أجفانِك سُلطانٌ على ضَعْفى مُسَلَّطْ
قد تصبَّرْتُ وإنْ بَرَّحْ بىَ الشَّوْقُ وأفْرَطْ
فلعـلَّ الدَّهرَ يوماً بالتَّلاقى منْكَ يغلطْ

ومن شعره يهتف بحب مصر :

شربتُ من الفراتِ ونيلُ مصرَ ... أحبُّ إلىَّ من ماءِ الفراتِ
ولى فى مصرَ مَنْ أصبو إليهِ ... ومَنْ فى قُرْبِهِ أبداً حياتى
فقلتُ وقد ذكرتُ زمانَ وصلٍ ... تمادىَ بعدَهُ روحُ الحياةِ
أرى ما أشتهيهِ يفرُّ منىَّ ... وما لا أشتهيهِ إلىَّ يأتى (٢)

---

(١) صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ١٠٣ .
(٢) مقدمة ديوان ابن سناء الملك وحياته وشعره ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٠ .

وقد قضى الملك الكامل العادل أربعين سنة فى حكم مصر ، دأب فيها على تشجيع الأدباء والعلماء ورويت عنه أخبار أعادت إلى الأذهان سيرة هارون الرشيد فقد كانت تبيت عنده فى القلعة فى كل ليلة جماعة أهل العلم ، فينصب لهم أسرة ينامون فيها بجانب سريره ليسامروه فى العلوم والآداب ، وقصده أرباب الفضائل ، ونوادره الأدبية أكثر من أن تحصى .

أما اهتمام الأيوبيين بالنثر فتعبر عنه هذه الكلمة التى قالها مؤسس الدولة الأيوبية عن القاضى الفاضل أمام ملأمن الناس : « لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضى » (١) وقد ظل الفاضل بشخصيته وأسلوبه مثلا يحتذيه أدباء عصره حتى طالعنا عصره بمؤرخين يستخدمون الأدب الرفيع فى كتابتهم ، من أمثال : « ابن شداد » فى فتح بيت المقدس ، وعز الدين الأثير » فى حديثه عن مقتل الشهيد عماد الدين الزنكى وغيرهما من المؤرخين فى مواقف مختلفة .

يحدثنا القلقشندى عن ديوان الإنشاء المصرى زمن الدولة الأيوبية فيقول : « كان الفاضل رحمه الله قد كتب بين يدى الموفق بن خلال فى وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد ، آخر الخلفاء الفاطمين ، فلما استقل السلطان صلاح الدين بالملك ، فوض إلى الفاضل الوزارة وديوان الإنشاء وأقام على ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين ، فكتب بعده لابنه العزيز وأخيه العادل أبى بكر ، ثم مات . وكتب للكامل بن العادل القاضى أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدرج إلى أن توفى فكتب بعده للكامل الشيخ أمين الدين عبد المحسن الحلى مدة قليلة ، وتوالت الإنشاء فى الولاية إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زهيرا ، ثم صرفه وولى بعده الصاحب فخر الدين بن إبراهيم بن لقمان فبقى إلى انقراض الدولة الأيوبية . (٢) .

وينبغى أن أفرق بين موقف الفاطميين والأيوبين من الأدب العربى سواء فى إنتاجه أم التشجيع عليه ، فشعر الأئمة الفاطميين يدل على روح شاعرية صادقة وأصيلة كما نلمحه فى ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى وغيره ، ومشاركتهم تنبىء عن ذوق ، وتشجيعهم ينبعث من العناية بالأدب لنشر مذهبهم .

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٧٢ .

(٢) صبح الأعشى ، للقلقشندى ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

أما الحكام الأيوبيون فأقرب ما أصور به موقفهم من هذا الفن هو المجاراة لما كان يسود المجتمع ، فشارك فيه بعضهم أو معظمهم ، مجاراة لتقليد اجتماعى. ففى ديوان عمارة اليمنى نلاحظ حديثه عن دعوات وجهت إليه لزيارة بعض حكام الأقاليم فى العصر الأيوبى ، وهذا يشير إلى أن هؤلاء الحكام كانوا حريصين على نوال مديحه حرصهم على الشارات العسكرية أو الحربية ، ولم يكن دافعهم إلى ذلك التذوق الفنى أو التشجيع الأدبى لذاته .

الحروب الصليبية :

ظهرت الحروب الصليبية على مسرح الأحداث فى وقت كانت فيه الشام ومصر تموج بالفتنة والانقسامات ، ففى الشام إمارات منقسمة متحاربة ، وفى مصر خلفاء لا يملكون من الأمر شيئا استبد وزراؤهم بالحكم وتناحروا عليه ، وفى خضم هذه الفوضى تمكن الصليبيون من تثبيت أقدامهم على الشريط الساحلى للبحر الأبيض فى بلاد الشام ، وأدركت المنطقة كلها هذا الخطر الداهم ، ولكن دون مقاومة حقيقية تردع ذلك العدوان ، حتى تأسست دولة الزنكيين ، وأخذ عماد الدين زنكى يوحد المنطقة الشمالية فى مواجهة الصليبيين ، حيث ضم الموصل والجزيرة والشام والعراق سنة ٥٢٥ هـ ، وقاوم الصليبيين حتى استشهد غيلة فتابع ابنه نور الدين محمود جهوده فى توحيد المنطقة فتم له ذلك سنة ٥٤٩ هـ [١] وشدد هجماته على الصليبيين وكان نور الدين يدرك أهمية مصر وضمها إلى سلطانه ، وأتيحت له الفرصة عندما لجأ إليه « شاور » مستنجدا ضد خصمه « ضرغام » ، فسير معه نور الدين حملة بقيادة أحد أمرائه « أسد الدين شيركوه » سنة ٥٥٩ هـ ، وتابع بعد ذلك حملاته . وقد حث العماد الأصفهانى ممدوحه نور الدين على المبادرة إلى ضم مصر والاستيلاء عليها قائلا:

وإنَّ مصراً لك تعنُو بعدما ... لسيفك العضْبِ عنُّا صعيدُها
والملَّةُ الغرَّاء خالٍ بالُها ... عالٍ سناها ، بك حالٍ جيدُها
مفتَرَّةٌ ثغورها ، ممنوعةٌ ... ثغورها ، محفوظةٌ حدودُها
وإنْ بغى جالوتُها ضلالةً ... فأنتَ فى إهلاكه داودُها [٢]

---

(١) الروضتين ، جـ ١ ، ص ٥٩٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٨ .

ولم تكن عيون الصليبيين غافلة عما يدور حولها تجاه مصـــر ، لأنها كانت حريصة هى الأخرى على ضمها إلى ممالكها لتضمن ثبات قدميها فى المنطقة ، وقد عبر عمارة اليمنى عن هذا التطلع الذى لم يكن خافيا على المترصدين مجريات الأحداث السياسية بقوله :

يارب إنّى أرى مصـــراً قد انتبـــهتْ لها عيـــونُ الأعادى بعدَ رقدَتِـــها
فاجعـلْ بها ملّـــة الإسلامِ باقيـــةً واحرسْ عقودَ الهدىَ من حلّ عقدتهـا
وهـبْ لـنا منك عوناً نستجيرُ بـــــه مـــن فتنةٍ يتلظّى جمرُ وقْدتِـــها (١)

وليس من الصدف التاريخية أن تبدأ حركة المد الصليبى فى الشام مع حركة الانكماش الإسلامى فى الأندلس ، فانتقلت جماعات من الأندلسيين إلى مصر التى قدر لها أن ترفع راية الجهاد وتقود النصر على الصليبيين مما جعلها قبلة العلماء والأدباء وصارت رمزاً ينبض بالثقة فى فترات اهتزت فيها ثقة المسلمين بقياداتهم وأوطانهم ، وبذلك اكتسبت مصر شخصية عالمية إسلامية تجمعت من حولها كل دواعى العزة والفخار .

وكانت الشام قسيمة مصر فى هذا الفخر ، ولكن التحام مواقع المسلمين فى الشام بالصليبيين جعل المقاتلين (المدنيين) بالقلم واللسان يتخذون من الحصون المصرية مواقعهم بعيدين عن خطر الغارات والمعارك ، وهذا كانت الصحراء الشرقية سبباً فى تواجد جماعة من العلماء والأدباء فى مصر خلال الحروب الصليبية .

وجعلت الحروب الصليبية من مصر مؤتمراً إسلامياً ينعقد كل عام ويحضره المسلمون من بلدان متفرقة من الهند وما جاورها ، والأندلس والمغرب ، حيث أغلقت الطرق البرية بين مصر والحجاز طوال الحروب الصليبية ، وأصبح لزاماً على الحجاج أن يسلكوا طريقاً أكثر أمناً ، فكانوا يتجهون إلى أعلى الصعيد فى مصر ، عند قوص ومنها يتجهون إلى ساحل البحر الأحمر حيث ميناء « عيذاب » ومن هناك يركبون السفن إلى الساحل الحجازى . وكان لهذا المؤتمر آثار سياسية واقتصادية وأدبية هامة على مصر .

رابعاً – انتشار البيئات العلمية والأدبية :

منذ اختط الفاطميون مدينة القاهرة حرصوا على أن تكون مدينتهم أعظم عواصم العالم ، فأقاموا بها دور العلم والمستشفيات ، وأقام بها أكابر العلماء والأطباء ولم يمض وقت

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ١٩٠ .

طويل حتى ازدهرت هذه المدينة ، وأصبحت منارة علمية وأدبية [1] ومن قبل إنشاء القاهرة كانت الإسكندرية منارة أخرى منذ أنشأها الإسكندر الأكبر [2] .

وقد ضعفت الحياة الأدبية فيها مع بداية الفتح الإسلامى فترة من الزمان ولكنها لم تلبث طويلا حتى عادت إلى الازدهار من جديد ، خاصة فى العصر الأيوبى . وكان من اثار تحويل الحجاج إلى صعيد مصر تكوين مراكز علمية وأدبية فى بعض مدنه كأسيوط وقوص وأرمنت . وهكذا كانت البلاد المصرية تموج بحركات علمية وأدبية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب . ولست بصدد إحصاء دور العلم والأدباء الذين تواجدوا فى مصر خلال هذه الفترة ، وإنما اكتفى بإبراز المعالم العلمية والأدبية التى تميز هذه الفترة متمثلة فى مراكز علمية ثلاث : العاصمة – الإسكندرية – الصعيد .

بيئة العاصمة :

أسس جوهر الصقلى مدينة القاهرة وأقام فيها الجامع الأزهر بأمر المعز لدين الله وتم بناؤه سنة ٣٦١ هـ وكان الهدف من تأسيسه إقامة الصلاة كالمساجد الإسلامية الأخرى التى وجدها الفاطميون فى مصر عند دخولهم . ولكن الوزير « يعقوب بن كلس » أخذ فى تحويله إلى مركز دعاية شيعى ، وأصبح الأزهر مدرسة لنشر المبادىء الشيعية إذ كان يدرس فيه الفقه الشيعى ، واصطبغت علومه بالصبغة الدينية . ولما أقام صلاح الدين دولته أبطل الخطبة من الجامع الأزهر وقضى على تدريس المذهب الشيعى ومع ذلك ظل الأزهر مدرسة تنشر مبادىء السنة إلى جوار مدارس أخرى أنشأها الأيوبيون [3] .

كما أنشأ الحاكم بأمر الله بجوار القصر الغربى الصغير سنة ٣٩٥ هـ دار الحكمة التى احتوت قاعات للمطالعة والنسخ وتلقى العلوم والدرس وكان يشرف عليها داعى الدعاة ، وللنساء فى هذه الحلقات مكان خاص ، وكان الهدف من إنشاء هذه الدار استيعاب الكتب والمطالعات والمحاضرات ، وتثقيف القضاة ، وتعليم الدعاة بعد أن ينالوا شطراً من دراستهم فى الجامع الأزهرى [4]

---

(١) انظر مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ ١ ، أحمد فكرى .

(٢) راجع هذا البحث ، ص ٦٤ .

(٣) أ – الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية . د . أحمد بدوى ، ص ١٤ .

ب – القاهرة : تاريخها وآثارها ، عبد الرحمن زكى .

(٤) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيىء الحملة الفرنسية ، عبد اللطيف حمزة ، ص ٢٣ .

وقد نهضت هذه المؤسسة بالعلوم الفلسفية والعلمية فى مقابل نهضة الأزهر بالعلوم الدينية . كما احتوت خزائن القصر الفاطمى على مكتبة ضخمة ، وصفها المؤرخون بأنها أعظم دار للكتب فى عصرها ، وقد آل الكثير من كتبها إلى مكتبة القاضى الفاضل ، بعد بيعها فى العصر الأيوبى ، حيث ضمها إلى مدرسته ، وكانت منارة طوال العصر الأيوبى إلى جوار غيرها من المكتبات التى أنشأها الوزراء الفاطميون كمكتبة الوزير يعقوب بن كلس ومكتبة برجوان أستاذ الحاكم بأمر الله (١)

وأخذت المدارس طريقها إلى الظهور فى مصر منذ أواخر العصر الفاطمى وانتشرت خلال العصر الأيوبى ، ولم يكن نظام المدرسة معروفاً فى الشرق بأسره ، وينسب بعض المؤرخين نشأتها إلى الوزير « نظام الملك » ، وكان انتشارها أول الأمر فى بغداد ونيسابور والموصل والبصرة خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (٢).

والمدرسة بناء فى وسط صحن كبير مربع الشكل ، فى كل جانب من هذا المربع إيوان مقبب ويراعى فى بنائها أن تكون على سمت القبلة ، ويكل مدرسة محراب ، فأصبح من الصعب التفرقة بين المسجد والمدرسة .

وفى عهد الخليفة الفاطمى العاضد أنشأ وزيره صلاح الدين الأيوبى مدرسة الشافعية بجوار الجامع العتيق (٣) ومدرسة المالكية التى عرفت باسم دار الغزل ، وبعد موت العاضد أنشأ صلاح الدين عدة مدارس قال عنها السيوطى فيما رواه عن ابن خلكان أنه قال : « لما ملك صلاح الدين الأيوبى الديار المصرية لم يكن بها شىء من المدارس فبنى صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة المجاورة للإمام الشافعى ، وبنى مدرسة مجاورة للمشهد الحسينى وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين « خانقاه » ، وجعل دارعباس الوزير العبدى مدرسة للحنفية ، عرفت بالسيوفية ، وبنى بمصر مدرسة أخرى للمالكية وهى المعروفة بالقمحية (٤) .

---

(١) مقدمة ديوان تميم المعز لدين الله الفاطمى ، تحقيق محمد سعد الأعظمى ، ص ٤٩ .

(٢) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيىء الحملة الفرنسية ، عبد اللطيف حمزة ، ص ٢٤ . ، سيرة القاهرة (مترجم) ، ص ١٦٢ .

(٣) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، جـ ٦ ص ٥٥ ، الخطط للمقريزى ، جـ ٢ ص ١٣٣ .

(٤) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، جـ ٢ ، ص ٢٥٦ .

كما شارك أمراء البيت الأيوبى وبعض نسائهم فى تأسيس مدارس أخرى كالمدرسة الكاملية التى أنشأها الكامل بن محمد بن الملك العادل أبى بكر أيوب سنة ٦٢١ هـ ، وتسمى دار الحديث ، والمدرسة الصالحية التى أسسها نجم الدين أيوب سنة ٦٣٦ هـ والمدرسة الفاضلية التى أسسها القاضى الفاضل سنة ٦٨٠ هـ ومدرسة الأحناف التى بنتها السيدة « عاشوراء » زوجة الأمير « أيازكوج » أحد أمراء صلاح الدين ، وقد تبرعت بدارها وأقامت عليها مدرستها (١)

بيئة الإسكندرية :

لم تكن الإسكندرية أقل حظاً من القاهرة فى ازدهار الحياة الفكرية والأدبية ، وكان لموقعها أمام بلدان البحر المتوسط . وكونها مفتاح مصر الغربى إلى الشمال الإفريقى والأندلسى ، وحضاراتها القديمة ، وبعدها النسبى عن عاصمة الخلافة الفاطمية أثر فى أن يأوى إليها كثير من علماء السنة ويمارسون نشاطهم فيها . وقد تألق نجم الإسكندرية فى العصر الأيوبى أكثر من العصر الفاطمى ، وذلك لأن القاهرة وهى العاصمة الفاطمية كانت حديثة النشأة فسلطت عليها الأضواء ولأن الإسكندرية قريبة من الأندلس . وقد شهد العصر الأيوبى توافداً أكثر من العصر الفاطمى ، ولأن الإسكندرية لم تكن مركزاً شيعياً لا فى العصر الفاطمى ولا فى العصر الأيوبى ، فتكاثر فيها السنيون » .

تزدحم المراجع العربية بقوائم رجال العلم والأدب والشعر الذين أقاموا بالإسكندرية وأسسوا فيها نهضة علمية وأدبية . وبذلك كثرت فيها دور العلم والمساجد وأتاها الطلاب والأساتذة . ومن أشهر مساجدها ومدارسها ، جامع العطارين الذى عمره بدر الجمالى سنة ٥٤٧ هـ . ومدرسة الطرطوشى التى بنتها زوجة الأمام الطرطوشى لتدريس الفقه المالكى سنة ٥١٥ هـ ، والمدرسة العادلية ، وهى المدرسة السلفية التى بناها للشافعية العادل بن السلار سنة ٥٤٣ هـ (٢) وقام بالتدريس فيها الحافظ السلفى ، وفيها سمع صلاح الدين الأيوبى درساً

---

(١) خطط المقريزى ، جـ ٤ ، ص ٢٠٩ .

(٢) كان ابن السلار شافعيا وشغل الوزارة للخليفة الظافر وأنشأ فى الإسكندرية مدرسة سنية فى العصر الفاطمى لأنه كان حاكمها ولأنها بعيدة عن مركز الدعوة بالقاهرة . انظر : الفاطميون فى مصر د . حسن إبراهيم ، ص ٢٩٦ ، والحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، د . أحمد بدوى ص ٣١ .

فى الحديث سنة ٥٧٢ هـ والمدرسة الصلاحية التى أسسها صلاح الدين سنة ٥٧٧ هـ على ضريح أخيه نور انشاه ، وكانت القراءة فيها متصلة وطلب العلم دائما ليلاً ونهاراً ، وعرفت الإسكندرية النظام الجامعى بمعناه الحديث فى تلك الفترة حيث كانت بها دار المغاربة تستقبل الوافدين ويقيم بها الطلاب وتقدم لهم الخدمات العلمية والطبية تحت إشراف المسئولين . كما كان بالمدينة عدد كبير من المساجد والرباطات والخانقات التى يأوى إليها المتصوفة ، ومن أشهرها رباط الأمير الهكارى(١) .

بيئة الصعيد :

كانت الأنشطة الثقافية موزعة بين أرجاء وادى النيل خلال العصرين الفاطمى والأيوبى وأخذت مناطق مختلفة فى الصعيد دورها فى الظهور وعلى مسرح الحركة الفكرية والنشاط الأدبى فى مصر ، ويتألق نجم مدينة قوص التى وصفها ابن جبير بقوله : « هذه المدينة حفيلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر ، الوارد من الحجاج والتجار اليمنين والهندسيين وتجار أرض الحبشة لأنها محضر الجمع ومحط الرجال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب ، وإليها انفلاتهم فى صدورهم من الحج (٢) .

كما نشطت الحياة الأدبية بمدينة أسيوط وهى المدينة العريقة ذات التاريخ الحضارى القديم التى خرج منها (أفلوطين) صاحب الفلسفة الأفلوطينية الحديثة المشهورة بالإسكندرية وكان أفلوطين قد انتقل إليها وأسس مدرسة بها قبل الفتح الإسلامى .

وفى مصر الفاطمية أخذت أسيوط حظها فى الشهرة فأنشأ بها الفائز الفاطمى مدرسة عرفت بالمدرسة الفائزية جمعت طائفة من كبار العلماء الذين قاموا بالتدريس فيها كالعالم المغربى الجليل « نجم الدين المغربى » و« الفتح بن موسى بن حماد » المتوفى بها سنة ٦٢٣ هـ وغيرهما .

---

(١) راجع تفاصيل حضارة الاسكندرية ودور العلم بها فى كتاب الحافظ السلفى ، محمد زيتون ، ص ١٢١ وما بعدها .

(٢) الطالع السعيد ، للأدفوى ، هامش ص ١٣

واشتهرت أسرة « مماتى » فى مدينة أسيوط وهى أسرة قبطية ظهر فيها طائفة من الشعراء « كالمهذب بن مماتى » الذى تولى ديوان الجيش أواخر العصر الأيوبى ، وابنه « لأسعد ابن مماتى » كان شاعراً من كبار شعراء مصر الأيوبية واتصل بالقاضى الفاضل وتولى بعض المناصب الهامة فى مصر (١)

وقد عدد الأدفوى فى كتابه الطالع السعيد أسماء طائفة من علمائه وأدبائه الذين أسهموا فى بناء الحياة الأدبية فى مصر خلال مرحلة النضج (٢) .

---

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ، د . محمد زغلول سلام ، ص ١٦٤ .

(٢) انظر « الطالع السعيد » ، ص ٥ ، وما بعدها .

obeikandl.com

الفصل الثانى

ظهور بواكير الشخصية المصرية فى الشعر

ميلاد الشعر العربى بمصر :

كان ظهور الشعر العربى بمصر ومشاركة المصريين فيه أسبق من ظهور النثر الفنى ، فبينما تألق نجم بعض الشعراء المصريين فى القرن الثانى الهجرى لم يعرف لمصر كاتب مشهور .

وقد عرفت مصر الشعر العربى أول ما عرفته على أيدى بعض الشعراء الذين وفدوا مع القبائل التى استقرت بمصر عقب الفتح الإسلامى وقد عبروا فى أشعارهم عن الحياة السياسية التى عاشتها مصر فى القرن الأول الهجرى . ومن ذلك أن « عبد الرحمن بن جحدم » والى مصر من قبل ابن الزبير ، فلما أن بويع « مروان بن الحكم » سنة ٦٤ من الهجرة أراد أن ينتزع مصر من الزبير ، فسير جيشاً عليه « زهير بن قيس العلوى » إلى « أيلة » ليمنع عبد العزيز من المسير ، وسار مروان أيضا إلى مصر ، وهزم الجيش المصرى ، وتقدمت جيوش المروانيين ، ففى هذه الحروب قال بعض عرب مصر شعراً . ولكن هذا الشعر لم يصلنا منه إلا النذر اليسير . ومن ذلك ما قاله « زرعة بن سعد بن أبى زمزمة الحشنى ، يمدح ابن جحدم :

وما الجُّدِ إلا مثلُ جدِّ ابنِ جحدمٍ ... وما العزمُ إلا عزمُهُ يومَ خندَقْ

ثلاثون ألفاً هم أثاروا ترابَهُ ... وحدوه فى شهرٍ حديث مصدَّقْ (١)

واستمرت الحروب التى كانت بين الزبيريين والأمويين فى مصر طويلاً وكانت هذه الحروب تعرف بأيام الخندق أو « التراويح » (٢) لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوبا ، يخرج هؤلاء ثم يرجعون ويخرج غيرهم ، وقتل من المصريين عدد كثير لاسيما من « المعافر » . وفى هذه الحروب قال عبد الرحمن بن الحكم وكان مروانياً:

---

(١) فى الأدب المصرى الإسلامى . د . محمد كامل حسين . ص ١٢٩ .

(٢) الحياة الفكرية والأدبية بمصر . د . محمد كامل حسين . ص ٨٨ ، ١٩ .

ألا هـــلْ أتـاهـا علـى نأيِـهـا نبـــاءُ التَّراويـــحِ والخنْـــدَقِ
بلغنـــا بفيـــلق يغشـــى الظِّـــرابَ بعيـــد السَّمُـــوِّ لمـــنْ يرتقـــى
وسَّـــدت معافـــرُ أفْـــقَ البـــلادِ بمَرْعِـــدِ جيـــشٍ لهـــا مبْـــرقِ
ونـــادَى الكُمـــاةُ : ألا فابـــرُزُوا فحتَّـــامَ حتَّـــى ولا نلتقـــى (١)

كما عبروا عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية التى عاشتها تلك القبائل فى مصر بما فيها من نزاع وتفاخر ، ومن ذلك ما قيل من الشعر فى القصة المعروفة بقصة « جناح الزعفران » وهى قصة تشبه – تماماً – قصة داحس والغبراء التى كانت فى الجاهلية . وفخر الحضارمة بتولى أحد رجالها « لهيعة بن عيسى الحضرمى » منصب القضاء بمصر سنة ١٩٩ هـ فقال أحد شعراء قبيلته :

لقـــدْ وَلِـيَ القضاء بكـــلِّ أرضٍ مـــن الغُـــرِّ الحضـــارمَة الكـــرَامِ
رجـــالٌ ليـــس مثلُهُـــمُ رجـــالٌ من الصيدِ الحجا جحةِ الضخَامِ (٢)

وقال يزيد بن مقسم الصدفى :

يـــا حضْرَ مَوْتَ هنيئاً ما خُصِصت به مِـــنَ الحكومةِ بينَ العُجْمِ والعَـــرَبِ
فـــى الجاهليةِ والإســـلامِ يعرفـــه أهل الروايةِ والتفتيشِ والطَّـــلبِ (٣)

وإذا كان لهؤلاء الشعراء الوافدين سبق التغنى فى سماء مصر بالشعر العربى ، فإن معظم شعراء العرب أتوها زائرين منشدين ومعلمين ومسجلين طرفا من أخبارها وأحداثها ، وواصفين معالمها وآثارها ومن هؤلاء الشعراء :

١ – عبيد الله بن قيس الرقيات :

وقد زار مصر فى إمارة عبد العزيز بن مروان سنة ٦٥ – ٨٦ هـ ومدحه . وتغنى بجمال مدينة حلوان تلك المدينة التى أنشأها عبد العزيز إبان ولايته على مصر ومما قاله الشاعر فى وصفها

---

(١) فى الأدب المصرى الإسلامى . د . محمد كامل حسين . ص ١٣١ .
(٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة لأبى عمر يوسف الكندى . تحقيق « رفن كست » بيروت ٨ ، ١٩ م . الحجاجة جمع حجاجج . وجحاجح جمع جحجاج وهو السيد الرفيع القدر .
(٣) فى أدب مصر الاسلامى . د . محمد كامل حسين . ص . ١٦١ .

سقـــياً لحلوان ذى الكُـرُوم ومـا صَنَّـفِ مـن تـينه ومـن عنـبهْ
نخلٌ مواقـيرٌ بالفـناء مـن (البُـرْ نِّى) غلبٌ تهـتز فـى شـربه (*)
أسـودُ سكـانهُ الحـمَامُ فـما تنفَـكُّ غربانـه على رُطَـبِهْ (١)

٢ – وجميل بن معمر : شاعر الغزل الذى قدر له أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بمصر سنة ٨٢٠ هـ . وأنشد عند احتضاره :

بكَـرَ النُّعـيُّ وما كـأنْ بجمـيلٍ مثْوَى بمصرَ ثـواءَ غـير قفـولِ
قومـى بثـينةَ فاندبـى بعـويـلٍ وابكـى خـَليلَكِ قبلَ كلِّ خلـيلِ (٢)

٣ – و« كثير عزة » : الذى تردد على مصر مراراً ومدح الأمير عبد العزيز بن مروان وفيها رثى حبيبته :

أقول ونضـوَى واقـفٌ عـندَ رأسِهـا عليـكِ سـلامُ اللهِ والعيـنُ تسفـحُ
فـهذا فـراقُ الحـقِّ لا أنْ تزيـرنَـى بلادَكِ فـتلاءُ الذراعيْـنِ صيـدَحُ
وقد كنـتُ أبـكى مـن فـراقـك حـيةً وأنتِ لعمرى اليومْ أنأى وانـزحُ (٣)

٤ – ونصيب بن رباح : الذى اتصل بعبد العزيز بن مروان ، وكان كثير التردد على مصر وسجل فى شعره بعض مظاهر الحياة المصرية من خلال مراثيه لعبد العزيز بن مروان ، الذى توفى سنة ٨٦ هـ ، وكان مرض الطاعون قد تفشى فى مصر فلجأ الأمير إلى قرية من قرى صعيد مصر تسمى « سكر » فرارا من هذا المرض ، ولكن « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروجٍ مشيدة » ، فعاجلته المنية فى هذه القرية ، ورثاه الشاعر مسجلا هذه الحادثة :

أُصِبْتُ يومَ الصـعيدِ فـى سـكرٍ مُصيبـةً ليس لـى بهـا قِـبَلُ

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى جـ ١ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٥٥٨ .

(٢) خطط المقريزى : جـ ١ ط ١ منشورات مكتبة العرفان . لبنان ص ٣٦٨ .

(*) البرنى : نوع من التمر . غالب : ملتفة .

(٣) الأغانى جـ ١ ، ص ١٣٩ . كانت وفاة الشاعر سنة ١٨٠ هـ ، انظر حسن المحاضرة للسيوطى جـ ١ ص ٥٥٨

بـاللّـهِ أنسـى مصيـبتى أبـــداً ما أسمعتْـنى حنينهَـا الإبِـــلُ
لـو يعـلمُ النَّعْشُ مـا عليـه مـن العـــرْفِ ولا الحاملون ما حمَـلوا
حتَّـى أجـنُّوه فـى ضريحِـــهمْ حيـنَ انتهـى من خليلكَ الأمـــلُ

٥ – « أبو نواس » : الذى مدح الخصيب ، والى مصر ثم انقلب عليه فهجاه ، وقد استمد صوره الفنية من ملامح البيئة المصرية ، فتراه فى مدحه يمزج بين النيل وفيضانه وعطاء الممدوح وإغداقه .

أنْتَ الخصيبُ * وهـذه مصـــرُ فتـدفَّـقا فكلاكـــما بـحرُ
لا تقعُـدا بى عـنْ مـدى أملـى شيـئاً فمـا لكـما بـه عُـذْرُ
ويحـــقُّ لى إذْ صِـرْتُ بينَكـــما ألأيحـلُّ بساحتـى فقْـــرُ
النـيل يُنْعِـشُ مـاؤه مِصْـــرا ونـداكَ يُنْعِشُ أهـلَه الغـــمرُ (١)

وقد أقام « أبو نواس » عاما كاملا بمصر سنة ١٦٠ هـ يشارك فى أحداثها بشعره ويضيف إلى خصائص فنه عنصرا جديدا من وحى البيئة المصرية ، فهو يتحدث عن النيل ، ويشير إلى قصة موسى وفرعون فى أكثر من موضع حيث يقول :

منحتُكم يا أهـلَ مـصْرَ نصيحـتى ألاَ فخـذُوا من ناصـح بنصـــيبِ
ولا تثـبوا وثـبَ السُّـفاةِ فتركـبوا علـى حدِّ حامى الظُّهر غيرِ ركـوبِ
فـإن يكُ بـاقٍ إفـكُ فرعـونَ فيكُـم فإنَّ عصـا موسى بكفٍّ خصـــيبِ
رماكـمْ أميـر المؤمـنينَ بحـيَّةٍ أكـــولٍ لحـيَّات البلادِ شـروب

وتسابق أدباء مصر وشعراؤها إلى مصاحبة أبى نواس وكتابة شعره وكان بينهم شاعر أراد أن يعلى شأنه بهجاء أبى نواس فقال :

ألاَقُـــلْ للنُّـــواس الـــ ضَّعيفِ الحـالِ والقـــدْر
خبـرْنـا منـــك أحـــوالا فلـمْ تحـمدْك فـى الخـــبرِ

(*) الخصيب بن عبد الحميد العجمى ثم الموادى . ويرجح الدكتور محمد كامل حسين أنه كان أميراً على الخراج بمصر سنة ١٨٩ هـ . انظر : فى الأدب المصرى الإسلامى . د . محمد حسين ، ص ١٧٧ ، ١٨٩ .

(١) ديوان أبى نواس ص ٨١ ط الحلبى . القاهرة . ١٣٢٢ هـ .

ومـــا إنْ ذعْـــتَ بـــالمنـــــظرْ ولكـــنْ ذِعْـــــتَ بالذُكـــــرِ

وكان هذا الشاعر قبيحا فقال فيه النواسى :

بمـــا أهجُـــــوكَ لا أدرى لسانـــى فيـــكَ لا يجـــــرى

إذا فكـــرت فـــى هجـــــوِ ك أبقيْـــتُ علـى شـــعرى (١)

٦ – و « دعبل بن على الخزاعى الذى وفد على والى مصر » المطلب ابن عبد الله الخزاعى « فأكرمه وعينه حاكما على أحد الأقاليم ، فمكث الشاعر أياماً به ، ولعله لم يرض بما ناله ، فغضب ، فاضطر الوالى إلى عزله . وسجل « دعبل » بعض أحداث مصر ، فعندما عزل المطلب من ولاية مصر ، لم يقبل أن يسلمها لمن خلفه ، فتحاربا ، فانهزم المطلب واضطر إلى الفرار إلى مكة . فقال دعبل :

فكيـــفَ رأيْتَ سُـــيُوفَ الحـــريشِ ووقعـــةَ مـــوْلـــىَ بـــنى ضـــبَّةْ

أحجُّـــــتْكَ أسيافُـــهُم كارِهـــاً ومـــالَـــكَ فـــى الحجِّ من رغْبـــةَ (٢)

٧ – وقد شارك « أبو تمام » أثناء مقامه بمصر فى تسجيل بعض الوقائع من ذلك ما قاله الشاعر « لعبد الله بن الطاهر » حين قدم مصر وهزم عبيد الله بن السرى سنة ٢٢١ هـ :

لِعَمْـــرى لقَـــد كانتْ بمصرَ وقيـــعةٌ أقامتْ على قصْد الهُدى كلَّ مائـــلِ

على الخنْدقِ الأقصى وما كان حولَهُ وما قـدْ يَلِيهِ مـن فضاءٍ وساحلِ (٣)

٨ – أبو الطيب المتنبى :

وكانت وفادته عامرة بالأحداث ، لأن طموحه لم يكن موضع رضا ، فحقد عليه الشاعر المصرى أبو القاسم بن أبى العقير الأنصارى » . وعاب المتنبى على هذا الشاعر قوله :

نظر المحب إلى الحبيب غرام

---

(١) المرجع السابق . ص ٩٣ .

(٢) كتاب الولاة ، وكتاب القضاة لأبى عمر محمد بن يوسف الكندى ، بيروت ، ١٩٠٨ . ص ١٦١

يريد « بمولى بنى ضبة » (السرى بن الحكم) الوالى الذى جاء خلفا للمطلب سنة ٢٠٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨١ .

فقال المتنبى : « إن العرب لا تقول إليه غرام ، وإنما تقول له .

فقال الأنصارى : حروف الخفض ينوب بعضها عن بعض ، وكان هذا الحوار فى مجلس « كافور » وعرّض الشاعر المصرى بالمتنبى فى قصيدة جاء فيها :

تعـرّضَ لـى بعـقـتٍ حاسـدٌ ... أبدَى الملامَ وكيفَ يرضى الحاسـدُ

مـا زال ينْشـدُ قائـماً حتـى إذا ... أنشـدتُ عارضـنى لأنّـى قاعِـدُ

ولـىٌ ولا أنـا شاكـرٌ لسؤالِـهِ ... فـيه ولا هو للإجابةِ حامـدٌ (١)

ولنا أنْ نتصور الأثر الذى يحدثه قول المتنبى فى كافور الأخشيدى :

نامتْ نواطـيرُ مـصر عـن ثعالبـها ... فقد بَشِـمْنَ وما تفنى العناقيـدُ

العبـدُ ليـس لحـرٍ صـالحٍ بـأخٍ ... لـو أنـه فـى ثيـابِ الحرِّ مولـودُ

لا تشـتر العـبدَ إلا والعصـا معـهُ ... إن العبـيدَ لأنجـاسٌ مناكيـدُ

ولا توهّمْـتُ أنّ النّـاسَ قد فُقِـدوا ... وأنّ مثـلَ أبى البيضـاءِ موجـودُ

وسواء أكان المتنبى على حق فى هجائه أم متجنيا ، فإننا نتخيل أن أجيالا من المصريين تغنت بهذه الأبيات المحكمة النسج ، القوية فى معناها ومؤداها ، خاصة إذا أدركنا أن الشخصية المصرية ساخطة على حاكمها غير مجاهرة فى خصومتها – كما وضحت ذلك سلفا – فلا شك أن مئات الأفراد كانت تتشدق بهذه الأبيات ، تشفيا من حاكمها « كافور » أو غيره وما كان تحريم كافور أو أمثاله على المصريين أن يتبادلوا هذه الأبيات إلامدعاة لانتشارها .

ومع أن المتنبى لا يمكن أن نعتبره شاعراً مصرياً ، ولكنه بوعى الفنان المقتدر أحس بالروح المصرية ، وعرف شيئاً من مميزات شخصيتها وما أحسب المتنبى كتب أبياته فى كافور إرضاءً لنزعة السخط فحسب وإنما غنى للشخصية المصرية غناء الفنان الذى يعرف ما يطرب جمهوره ليحقق الإيذاء ، وليمجد ذاته أولا بذيوع شهرته .. وهذه الكناية اللطيفة التى أطلقها المتنبى على كافور حين دعاه « بأبى البيضاء » وهى صفة لكافور الأسود كناية مصرية صميمة ، تسرى فى آذان المصريين كأعذب موسيقى تسحر الألباب وتثير السخرية الفكهة .

---

(١) الأدب المصرى الإسلامى ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢٤٤ .

٩ – وتردد عليها الشاعر « كشاجم » ، وذكر فى أشعاره طرفاً من حياة اللهو التى أخذت فى الظهور منذ عصر الولاة فمما يروى أنه كان لبعض الولاة ولع بالمجون وشرب الخمر ، كالوالى « قرة بن شريك » الذى هدم الجامع الكبير العتيق بالفسطاط ، وأعاد بناءه فكان الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا « قرة » بالخمور والزمور والطبول فيشرب فى المسجد طول الليل ، ويقول : لنا بالليل ولهم النهار

قال السيوطى عنه : « كان قرة ظلوماً عسوفاً يدعو بالخمر والملاهى فى جامع عمرو » (١)

وكانت لمصر مجالس تشبه مجالس أبى نواس فى بغداد ، من أشهرها مجلس سعيد المعروف بقاضى البقر شاعر الأخشيد ، ويروى أن خمارويه بن أحمد بن طولون ، بنى له غرفة فوق دير القصير ، وجعلها مرتاداً للهوه ومتعه وملتقى لأصحابه من السمار وجلاس الكأس ، وقد أصبحت الأديرة مكاناً لهذه المتع ، وأشهرها دير القصير بمصر الذى يحدثنا عنه كشاجم فى قوله .

سلامٌ على ديرِ القُصَيْرِ وسجنِه ... فجنّاتُ حلوانٍ إلى النَّخْلاتِ

منازل كانتْ لى بهنَّ مآربٌ ... وكانتْ مواخيرى ومنتزهاتى

هنالك تصفو لى مشاربُ لذّتى ... وتصحب أيّام السُّرور حياتى (٢)

وكان « كشاجم » دائم الحنين إلى الحياة الماجنة فى مصر بما فيها من شباب صعاليك وغلمان مخنثين :

لقد كانَ شوقى إلى مصر يؤرقنى ... فاليَوْم عدت وعادتْ مِصْرُ لى داراً

أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحباً ... طوراً وطوراً أرجى السيرْ أطواراً

أما الشبابُ فقد صاحبتَ شرْهُمُ ... وقد قضيتُ لبانات وأوْطارا

من شادنٍ من بنى الأقباط يعقدُ ما ... بين الكثيبِ وبين الخصْرِ زنّارا (٣)

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، جـ ١ ص ٥٨٧ .

(٢) خطط المقريزى ج١ ٤ ص ٤١١ ط القاهرة ، ١٣٢٦ .

(٣) المرجع السابق .

ومع نهاية القرن الثانى للهجرة أخذ شعراء مصر دورهم إلى جوار كبار الشعراء العرب فى التعبير عن بعض جوانب الشخصية المصرية . ومن أبرز هؤلاء الشعراء :

١ – « سعيد بن عفير » ، وهو أنصارى الأصل ولكنه ولد بمصر سنة ١٤٦ هـ ، وعاش أحداثها ، وسجل فى شعره شطراً من حياتها السياسية ، إبان الثورة التى شنها أهل الحوف على والى مصر « موسى بن مصعب الخشعمى » سنة ١٦٣ هـ ، عندما اشتط فى جمع الضرائب ، فثاروا عليه وقتلوه ، ووصف الشاعر ثورتهم وامتدح صنيعهم فى قوله :

ألمْ ترهُمْ ألوتْ بموسى سيوفُهمْ ... وكانتْ سيوفٌ لا تدين لمترفِ
فما برحَتْ به تعودُ وتبْتَدى ... إلى أن تروَّى من حمامٍ مُدَنَّفِ
فأصبحَ من مصر وما كان قدْ حوَى ... بمصرَ من الدُّنيا سليباً بنفنفِ
ولكُن أهلَ الحوفِ لله فيهم ... نخائرُ إنْ لا ينفد الدهرُ تُعْرَفِ (١)

٢ – و « عامر بن سعيد » ، المعروف بالمعلى الطائى ، الذى ذكر بعض أشعاره « أبو تمام » فى مختاراته المعروفة « بالحماسة » ومنها هذه الأبيات :

لولا بُنيّاتٌ كزغْب القطا ... رَدَدْنَ من بعض إلى بعض
لكان لى مضْطَرَبٌ واسعٌ ... فى الأرْضِ ذاتِ الطُّول والعَرض
وإنَّما أولادُنا بيْننا ... أكبادنَّا تمشى على الأرضِ (٢)

وقد سجل هذا الشاعر جانباً من شخصية مصر السياسية فى شعره ، صور فيه الصراع على ولاية مصر ، بين « سليمان بن غالب » الذى تولى أمرها سنة ٢٠١ هـ . وغريمه « السرى بن الحكم » ، وهو الصراع الذى انتهى بانتصار سليمان ، وإلقاء القبض على السرى وسجنه فى مدينة أخميم بصعيد مصر وفى هذه الأحداث يقول المعلى :

---

(١) الولاة للكندى . ص ١٢٧ .

(٢) (أ) الحماسة . لأبى تمام ط ١ ، القاهرة ، ١٩١٦ م . ص ٨٨ ، ٨٩ .

(ب) المغرب فى حل المغرب . لابن سعيد . جـ ١ ص ١٠١ ط جامعة فؤاد الأول مصر .

إذا شنَّ فـي أرضِ سليمـانُ غارةً ... أثارَ بها نقعـاً كثيـرَ المصـائبِ
ألم ترَ مصْراً كيف داوى سقيمَـهـا ... علـى حيـن دانـتْ للعدوّ المناصـبِ
حماها ولولا ما تقـلَّدَ أصبحـتْ ... حبيساً على حُكْمِ القنا والمقانبِ (١)

٣ – و « يحـيى الخـولانى » : الذى شارك فى تصوير بعض جوانب شخصية مصر الاجتماعية عندما هجا أقباط مصر ، ومن أعانهم فى حادثة « الحراس » وسببها أن قوماً من القبط ، اتخذوا لأنفسهم نسباً عربيا مزوراً ، فجاءوا بشهود مرتشين وادعو أنهم من بنى حوتكة من قبيلة قضاعة وحكم لهم القاضى العمرى بذلك النسب العربى، فثار عرب مصر وكان ، من بين الشهود أحمد بن حوى العذرى فهجاه الشاعر الخولانى ، كما هجا القبط والقاضى فى قوله :

يا ليْـتَ أمَّ حـوًى لـم تَلِـدْ ذكـراً ... أو ليْـتَ أن حـوًّياً كـان ذا خـرس
كسا (قضاعةَ) عاراً فى شهادتـه ... للـه در حـوًى شـاهدِ الحـرَسِ
شهادةٌ رجـعت لـو أنَّـها قُبِـلتْ ... لألحق الزور منها العيرَ بالفرسِ (٢)

وقال أيضاً :

ومن أعجبِ الأشـياءِ أنَّ عصـابـةً ... منَ القبطِ فينا أصبحوا قد تعرَّبـوا
وقالوا أبونا (حَـوْتكُ) ، وأبوهـم ... مـنَ القِبْطِ علْجٌ حبْلُهُ متـذبذبُ
وجاءوا بأجلافٍ منْ الحوف فادَّعـوا ... بأنَّهـم منهُمْ سفاهاً وأجـلبوا
ألا لعَن الرَّحمنُ من كـان راضـياً ... بهم رغماً ما دامت الشَّمسُ تغربُ (٣)

مظاهر الشخصية المصرية وآثارها فى فنون الشعر :

نلمح فى بواكير الشعر المصرى بعض الشخصية المصرية (السياسية والاجتماعية والطبيعية) ، كما نلاحظ آثارها فى بعض فنون الشعر وأغراضه .

---

(١) الولاة الكندى ص ١٦٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٩٩ .
(٣) الولاة ، للكندى ، ص ٣٩٩ .

١ - الشعر السياسى :

لعل أسبق الأغراض تعبيراً عن الشخصية المصرية هو الشعر السياسى الذى تابع تسجيل الأحداث والفتن التى عاشتها مصر من زمن الولاة ولاسيما الولاة العباسيون .

من ذلك ما حدث سنة ٢٠٧ هـ ، عندما ، أرسل الخليفة المأمون خالد بن يزيد الشيبانى والياً على مصر فامتنع ابن السرى من تسليمها وحاربه ، فانضم ابن الجروى إلى جيش خالد ، استمر القتال مدة طويلة فمل الجيشان الحرب ، وحدث أن ارتفع النيل فى هذا الوقت ، فسار خالد إلى الحوف ، فلما رأى الجروى ذلك أراد أن يخرج خالد بن يزيد من ملكه فمكر به حتى أنزل « نهيا » وهناك تركه ابن الجروى فى جهد وصفه المعلى بقوله :

سلا خالدٌ لما انجلى عنه شكه ... وأسلمه فى عدوةِ البحرِ خاذلُهْ

فزالت أمانيه غداة سما لنا ... بعارض جيش يمطر الموت وابله (١)

فلما انكشف النيل سار ابن السرى إلى خالد وحاربه وأسره، وفى ذلك قال المعلى

ألا لا أرى خيْلاً أضرَّ لـه الوغى ... وأجبنَ فى الهيجاءِ من خيل خالدِ

وقُوَّاده أشرارُ كلِّ قبيلةٍ ... تمالوا على إسلامه فى الشدائدِ

فما أسروا منه جبانـاً معضدا ... ولكن أبا شبلينِ عبْلَ السُّواعدِ (٢)

ولما رأى المأمون هذه الثورات والفتن ، قسم مصر بين ابن السرى وابن الجروى ، فولى كل واحد منهما ما فى يديه ، فأقبل ابن الجروى على جمع الخراج ، فقاومه قوم من أهل الحوف فكتبوا إلى ابن السرى يستعدونه على ابن الجروى ، فتقابل الجيشان فى « بلقينة » واستمر القتال طويلا ، حتى اضطر ابن الجرو ى إلى أن يفر إلى دمياط ، ثم عاد ابن الجروى مرة أخرى سنة ٢١٠ هـ ، فملك تنيس ودمياط ، وهزم جيش ابن السرى ولم تهدأ هذه الفتن حتى دخل عبد الله بن طاهر مصر سنة ٢١١ هـ (٣) . وأخذها من ابن السرى ، كما خضع له ابن الجروى .

---

(١) الولاة ، للكندى ، ص ٣٩٩ .

(٢) فى الأدب المصرى الإسلامى د . محمد كامل حسين د . ص ١٢٥ ، ٢٦٠ .

(٣) فى الأدب المصرى الإسلامى د . محمد كامل حسين ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

وتستمر هذه الفتن ، وإن خفت حدتها فى عصر الطولونيين ، فالشاعر « القاسم بن يحيى المريمى » يحدثنا عن خروج خمارويه سنة ٢٧٢ هـ لقتال ابن كنداج ومطاردة ابن خمارويه لهذا الثائر بقوله :

أتانـــا أبو الجيش الأمير بيمْـــنِه ... فشرَّدَ عنَّا الجورَ وافتقَرَ العـــسْرُ
فـإنْ يكُ أرضُ الرُّقَّتين بـه اكتســتْ ... ضياءً وإشراقاً لقد أظلمت مصـــرُ
ولما رأى الجيشَ ابنُ كـنداج مقبلا ... أرتْهُ المنايا الحمرَ أعلامُهُ الحمْرُ (١)

٢ – رثاء الدول :

أبدع المصريون فى هذا الغرض ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أحداث السياسية التى عانى منها الشعراء واكتووا بنارها عن كثب ، فالدولة الطولونية – التى سبق القول بأنها هيأت للشعراء مكانة مرموقة وعيشة راضية – لم تعمر طويلا ، إذ انتزع العباسيون من جديد إمارة مصر من الطولونيين . وفى سنة ٢٩٣ هـ أمر القائد العباسى المنتصر بهدم الميدان الذى أنشأه ابن طولون فراح الشعراء المصريون يندبون هذه الدولة ويبكون على ما عفى من آثارها فقال الشاعر محمد بن طشويه :

مَـــنْ لمْ يرَ الهدمَ للميْـــدانِ لـم يـرَهُ ... تباركَ اللـــهُ مـــا أعلاه وأقـــدرهُ
كمْ كان يأوى إلـــيه فـــى مقاصـــره ... أحوى أغنُّ غضيض الطرْف أحـوره
كمْ كانَ فيه لهم من مشـــربٍ غـــدقٍ ... فعبٌ طرْفُ الرُّدى فيه فكـــدَّره (٢)

وقال سعيد القاص يبكى دولة الطولونيين :

جرى دمعه ما بين ســحْرٍ إلـى نَـحْر ... ولم يجر حتى أسلـمتْهُ يدُ الصَّـــبْر
تتابُعُ أحـــداثٍ يضيِّـــعْنَ صـــبْرَه ... وغدرٌ من الأيَّام والدَّهْـــرُ نو غـــدرِ
طوى زينة الدنيا ومصـــباحَ أهلِهَـــا ... بفقْدِ بنى طولون والأنْجُـــمِ الزُّهـــرِ

---

(١) روى السيوطى أن الوزير أبا القاسم المغربى ذكر أن البطيخ العبد ولاوى الذى بمصر منسوب إلى عبد الله ابن طاهر هذا ، قال ابن خلكان : إما لأنه كان يستطيبه ، أو لأنه أول من زرعه بها – حسن المحاضرة جـ١ ص٥٩٢ .

(٢) خطط المقريزى . جـ ١ ط بيروت . ص١٠٨ ، وكتاب الولاة للكندى ص ٢٦٣ .

ثم أخذ الشاعر يسجل أعمال ابن طولون ويشيد بمنشآته في مصر :

وكان أبـو العـباس أحمـدُ ماجِداً ... جميلَ المحيَّا لا يبيتُ عـلى وِتْـرِ
بنى مسجـداً فيـه يـروقُ بـنـاؤه ... ويهدى به في الليل إن ضلَّ من يسْرى
مآثرُ لا تبلى وإن بـاد ربُّـهـا ... ومجدٌ يـؤدى وارثيه إلى الفـخْرْ
فمن يبك شيئاً ضاعَ من بعد أهـلـه ... لفقدهم فليبك حـزناً على مصر (٢)

٢ – الوصف

بدأت ملامح الشخصية المصرية تظهر في فن الوصف وأصبحت أعمال الطولونيين وآثارهم موضوعات لعديد من القصائد ، من ذلك ما قاله الشاعر سعيد القاص .

يـدلُّ على فضْلِ ابنِ طولون همَّـةً ... محلِّقـةً بينَ السِّماكـيْنِ والغـفـرِ
فإن كنت تبغى شاهـداً ذا عدالـةٍ ... يخبِّرُ عنه بالجـلـيِّ مـن الأمـرِ
فبالجـبل الغـربى خطة يـشكر ... له مسجد يغنى عن المنطق الهـذْرِ
بنـاه بآجـرٍ وسـاجٍ وعرعـر ... وبالمرمرِ المسْنون والجصِّ والصـخْرِ
فسيحُ الرحابِ يحسُرُ الطرفُ دونَـهُ ... رقيق النسيم طيِّبُ العـرفِ والنـشْرِ
وتـنُّور فرعون الـذى فـوقَ قـلـةٍ ... على شاهقٍ عالٍ على جـبلٍ وعـرِ
وعينُ معينِ الشُّـرْبِ عيـنٌ زكـيَّةٌ ... وغير أجـاج للـرواةِ والطـهرِ
كأنَّ وفـودَ النـيلِ فـى جنباتهـا ... تروح وتغدو بين مـدٍّ إلـى جـزرِ
ولا تنـس مارِسْتَـانه واتِّـساعه ... وتوسـعة الأرزاق للحولِ والشـهرِ
فللميِّتِ المقـبورِ حسـنُ جـهازِه ... وللحيِّ رفقٌ فى عـلاجٍ وفى جبر (١)

وفضلا عما تشير إليه هذه الأبيات مع غيرها في شتى الأغراض بمستواها الفني – عن التعبير الصادق عن ظهور البواكير الأولى الدالة على شخصية مصر ، فإنها تقدم لنا وصفاً لبعض ملامح البيئة المصرية وتصويراً لفن العمارة المصرية ، وتستخدم صوراً منتزعة من البيئة المصرية .

---

(١) كتاب الولاة للكندى ص ٢٥٣ .
(٢) المرجع السابق . ص ٢٥٤ .

ولعل الشاعر استوحى معنى البيت الأخير من الموروث فى البيئة المصرية حيث قدم الموتى على الأحياء ومعروف أن المصريين يبالغون فى تقديس موتاهم مبالغة شديدة .

وكما صور الشعر وصف الآثار ، فإنه صور جانبا آخر من البيئة الطبيعية التى توضح خصائص الشخصية المصرية : فالشاعر صالح بن موسى « يصف البركة بقوله :

أوَ مـــا تـــرى حُـسْنَ الرُّبـا ... ض وما اكْتسيـــنَ مـــن الزُّهـرْ
وجـــهُ الرَّبيـــعِ وحـــبَّذا ... وجـــهُ الربيـــع إذا ظهـــرْ
الوشْـــيُ ينـــشر والمـــلا ... حِـــفُ والمـــطارِفُ والحـــبرْ
هـــذا البنفســـج فـــى الحـــدا ... د بغيـــر حـــزن قـــدْ ظهـــر
وأتـــى البُهـــارُ بصُـــفْرةٍ ... فلـــكُلِّ حُـسْنٍ قـدْ بَهَـــرْ (١)

كما سجل فن الوصف بعض الأحداث الطبيعية التى وقعت فى تلك الفترة. من ذلك ماروواه السيوطى أن زلزالا وقع بمصر أيام كافور الإخشيدى، فأنشد محمد بن القاسم بن عاصم قصيدة منها :

بالحاكم العدل أضحـى الدين معـتليا ... نجل العـلا وسـليل السـادة الصلحـا
مازلزلت مـصر من سـوء يرابـهـا ... لكنـهـا رقصـت من عـدله فرحـا(٢)

وفى أيام أحمد بن طولون تساقطت النجوم فراعه ذلك، وأخذ يسأل العلماء والمنجمين فما أجابوه بشىء، ودخل عليه الجمل الشاعر وهم فى هذا الحديث فأنشده.

قـــالوا تســـاقَطَتْ النُّجـــو ... مُ لحـــادثٍ فـــظٌّ عســـيرْ
فأجـــبتُ عـــندَ مقالـــهم ... بجـــوابِ مُحـــتَنِكٍ خبـــيرْ
هـــذى النُّجـــومُ السَّـــاقطا ... تُ نجـــومُ أعـــداءِ الأمـــيرْ (٣)

٤ – المجون :

شهدت بداية الحكم الطولونى لمصر مرحلة استقرار نسبى صحبتها موجة من الثراء، ومع الثراء ينتشر اللهو والمجون، والشعراء سباقون إلى الانغماس فى هذه الحياة عملا وقولا،

(١) المرجع السابق ص ٢٧٧ .
(٢) فى الأدب المصرى الإسلامى د . محمد كامل حسين ، ص ٢٣٧
(٣) حسن المحاضرة للسيوطى حـ ٢ ص ٢٨٠

وربما شجعهم على ذلك أن بعض ملوك هذا العصر شاركهم طرفاً من حياة المتع واللهو، فأحمد ابن طولون – مع ما عرف عنه من تدين – كان ميالا إلى الشراب والطرب والمسامرة. وروى بعض المؤرخين عن ابنه خمارويه أنه كان مسرفاً فى الشراب، وسبق القول أنه أقام غرفة فوق دير القصير، كان يتردد عليها مع رفاقه طلاب اللهو، وكان بهيكل الدير صورة جميلة للسيدة العذراء يحلو للشاربين تناول كئوسهم مع إدامة النظر إليها :

كم شربْنا على التصاوير فيه ... بصغارٍ محدثةٍ وكبارِ
صورةٌ من مصورٍ فيه ظلتْ ... فتنةً للقلوبِ والأبصارِ
لا وحُسْنِ العينينِ والشفةِ اللمْياءِ فيها وخدِّها الجلنارى
لاتخلَّفْتُ عن مزارى ديرا ... هى فيه، ولا نأى بى مزارى
فسقى اللّهُ حُلوانَ فالنُّجدَ ... فديرَ القُصَيْرِ صوبَ العشارِ
كم تنبَّهْتُ من لذاذةِ نومى ... بنعيرِ الرُّهبانِ فى الأسْحارِ
والنواقيسُ صائحاتٌ تنادى : ... حىَّ يا نائماً على الابتكارِ (١)

وتطالعنا أشعار تلك المرحلة بأسماء الأديرة التى كانت مقصد المتع واللذات بمصر كدير القصير، ودير مار حنا، ودير نهيا وغيرها. يخبرنا الشاعر الأخشيدى أبو هريرة بن أبى عاصم، عن حياته بدير القصير :

كمْ لى بدْيرِ القُصَيْرِ من قَصْفٍ ... مع كلِّ ذى صبوةٍ وذى ظَرْفِ
لهوتُ فيه بشادنٍ غَنِجٍ ... يَقْصُرُ عنه بدائعُ الوصْفِ (٢)

ويقول :

إنَّ ديْرَ القُصَيْرِ هاجَ ادِّكارى ... لهوَ أيامِنا الحسانِ القصارِ
وكأنِّى إذْ زرْتُه بعدَ هجرٍ ... لم يكُنْ من منازلى وديارى
إذْ صعودى على الجِيادِ إليه ... وانحدارى فى المنشآتِ الجوارى

---

(١) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . لابن فضل الله العمرى ص ٢٦٣ ، حـ ١ . ط القاهرة ، ١٩٢٤
(٢) خطط المقريزى حـ ٤ مصر ، ١٣٢٦ هـ . ص ٤٩٠ . وقد ذكر الثعالبى اسمه مضبوطا بالشكل فى يتيمة الدهر حـ ١ ص ٣٦١

مـنزلاً لستُ محصياً ما بقلبى ... ولنفسى فيه من الأوطارِ

منزلا من علوّه كسماءٍ ... والمصابيحُ حولَه كالدُّرارى (١)

ويعرض لنا الشاعر ابن البصرى جانباً آخر من حياة هذه الأديرة التى أقيمت بعيدا عن ازدحام السكان وأعين الناس، فأصبحت مقصد طلاب المتع والتنزه فى الخلاء وهواة الصيد إلى جانب متعة الشراب أو الجنس.

أديرَ « نهيا » (٢) ماذكرتُك ساعة ... إلا تذكّرتُ الشبابَ بمفرَقى

والدّهرُ غضٌّ والزمانُ مُساعدٌ ... ومقامُنا ومبيتُنا بالجوْسقِ

ياديرَ « نهيا » إنْ ذُكرتَ فإنّنى ... أسعى إليك على الخيولِ السُّبَّقِ

وإذا سُئِلْتَ عن الطُّيُورِ وصَيْدِها ... وجنوسِها فاصدقْ وإن لم تصدقِ

كمْ قدْ صبوتُ بغرّتى فى شِرّتى ... وقطعتُ أوقاتى برمى البندقِ

وخلعتُ فى طلبِ المجونِ حبايلى ... حتىّ نُسِبْتُ إلى فعالِ الأخْرَقِ (٣)

وتعكس لنا بعض أشعار الأديرة خفة الروح المصرية التى نلمحها فى أبيات ابن البصرى:

أتنشطُ للشُّربِ ياسيِّدى ... فيومُك هذا دَقيقُ الدروزْ

فعندى لكَ اليومَ مشويّتان ... سرقتهُما من دجاجِ العجوزْ

أتنشطُ عندى على نبقتين ... على لوْزتين ، على قَطر ميزْ

ونقصدُ "نهيا" وديرا لهما ... به منبتُ الوردِ والمرّ محوزْ

ونشرب فيها برطلٍ وجامٍ ... وطاسٍ وكأسٍ وكوبٍ وكوزْ

فعندىَ خِشْفٌ رخيمُ الدّلالِ ... نشا فى النّعيم ولِبْسِ الخزوزْ (٤)

---

(١) الديارات . لأبى الحسن على بن محمد الشابشتى . ورقة ١٢٩ – ١٣١ .

(٢) دير نهيا : كان بالقرب من الجيزة وقال عنه ابن الفضل الله العمرى أنه أطيب مواقعها هواء وهو عامر برهبانه وسكانه وله فى النيل منظر عجيب . مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار حـ ١ ص ٣٦٢

(٣) الديارات . لأبى الحسن على بن محمد الشابشتى . ورقة ١٢٩ – ١٣١

(٤) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى . حـ ١ . ص ٣٦٢ . مطبعة دار الكتب المصرية ؛ القاهرة ، ١٩٢٤ .

ولقد أوحت الأديرة إلى روادها من الشعراء صوراً بديعة من ألوان التعبير، امتزج فيها وصف الشعور بالبيئة الطبيعية، فالشاعر محمد بن عباس البصرى يستلهم أبياته الآتية من وقفة فى دير مارحنا (١) . وهى تعكس مايعانيه من حرقة الجوى ولوعة الشوق، وقد عكس هذه المشاعر على الورود التى رآها فى ذلك الدير، كما تبدو فى نظرة الورد إلى أترابه، ويما فى أجفان النرجس من دموع تتقاطر :

ياحاملَ الكأسِ أدرْها واسقِنى	قد ذَعر الشوقُ فؤادى فانْذعرْ
أما ترى البركةَ ماأحسنَها	إذْ تداعى الطَّيرُ فيها فصفرْ
وأبيضُ النرجسِ فى أجفانه	دمعُ النَّدى لولا التَّشاجى لقَطَرْ
دعنى فما أهلَكُ إلا بالجوَى	ماعيشةُ العاشقِ إلاَّ فى كدَرْ (٢)

ويستوحى ابن أبى عاصم المصرى من "دير طمويه" (*) هذه الصورة المعبرة عن جمال الطبيعة المصرية، واستمتاع الشعراء بملذات الحياة فى الأديرة المنتشرة فى ربوع وادى النيل.

واشربْ "بطموية" من صهباءَ صافيةٍ	تُزرِى بخمرِ قرى هيت وعانات
على رياض من النُّوَّار زاهرةٍ	تجرى الجداولُ فيها بين جنات
كأنَّ نبتَ الشَّقيقِ العصفرىِّ لها	كاساتُ خمرٍ بدتْ فى إثر كاسات
كأنَّ نرجسَها من حُسْنِها حَدَقٌ	فى خفْيةٍ يتناجَى بالإشارات
كأنَّما النِّيلُ فى مرِّ النَّسيم به	مستلئمٌ فى دروعٍ سابريَّات
منازلٌ كنتُ مفتونا بها شغفا	وكنَّ قِدماً مواخيرى وحاناتى
اذ لا أزال مُلِحًّا بالصَّبوحِ على	ضربِ النَّواقيس صبَّاً بالدِّيارات

---

(١) دير مارحنا : كان على شاطىء بركة الحبش وبقربه بئر توت تعرف ببى نجاتى عليها جميزة يجتمع عندها الناس ويشربون . وقد ضبطه فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار - حـ ١ - ص ٣٦١ . (مريحنا) .

(٢) يتيمة الدهر . للإمام أبى منصور عبدالملك الثعالبى . ص ٣٧٩ . حـ ١ . ط ١ ١٩٣٤ .

(*) طمويه : يفتح الطاء وسكون الميم وفتح الواو وياء ساكنة . قريتان بمصر إحداهما فى كورة المرناحية والأخرى بالجيزة . قال الشابشتى وطمويه فى الغرب بإزاء حلوان ، والدير راكب البحر حوله الكروم والبساتين والنخيل والشجر، وله فى النيل منظر حسن وهو أحد متنزهات مصر ومواضع لهوها المشهورة . خطط المقريزى . جـ ٤ ص ٤١٤ ط مصر ، ١٣٢٦ هـ

وقد سجل الأدب المصرى الذى أوحت به هذه الأديرة بعض المعتقدات الدينية التى كانت تسود بين النصارى، فمما يرويه المقريزى أن النصارى يزعمون وجود نار بدير القصير من النار التى كانت ببيت المقدس، يغدون منها فى كل عيشة وهى بيضاء ضعيفة الحر لاتحرق، ثم تقوى إذا أوقدمنها السراج [1] . وقد أشار ابن عامر إلى هذه الظاهرة فى الأبيات التالية :

ياراهب الدير ماذا الضوء والنور	لقد أضاء بما فى ديرك الطورُ
هل حلت الشمس فيه دون أبرجها	أو غيب البدر فيه وهو مستورُ
فقال ما حله شمس ولاقمر	لكن تقرب فيه اليوم قوريرُ [2]

ولقد لعب فن المجون دوره فى الأدب العربى، وظهر فى صور مختلفة منها الدعوة إلى التمتع باللذات ومنها التفاخر بالمعاصى، ومنها التعريض بالدين، فأى لون منها تستجيب له طبيعة الشخصية المصرية ويناسب خصائصها والشخصية المصرية – كما سبق – محبة للتدين متمسكة بالموروث من التقاليد، وفى الوقت نفسه، محبة للحياة بما فيها من لهو ومتع، فلاغرابة أن يمثل اللهو والمجون جانباً فى أدبها، أما السخرية من الدين أو التهكم به، فهو أمر غريب على المصرين، ومع ذلك نراها فى أبيات (سعيد بن فاخر) أحد شعراء ؟ الأخشيد والمعروف "بقاضى البقر" حين يقول :

حى على الكأس فى الصباح	مطرحاً نصحَ كل لاح
وانتهبِ العيشَ ماتأتّى	فانت منه على جناح
وأجرنى من عقول قوم	عموا عن الشرب والملاح
يارب دعنى بلا صلاح	يارب ذرنى بلا فلاح
يدى مدى الدهر فوق ردف	وراحتى تحت كأس راح [3]

فالشاعر لا يكتفى بالدعوة إلى الشراب، ولا بنصحه لنا بتناولها قبل فوات العمر، وإنما يتعادى فى مجونه إلى مخاطبة الإله لا تائباً ولا مستغفرا، بل مستهترا ماجناً متحدياً، وهذه الروح بعيدة عن طبيعة الشخصية المصرية، ويبدو أن عصبة أبى نواس وأمثاله من مجان بغداد فتنوا بمذهبهم الشعرى الجديد بعض الشعراء المصريين.

(١ ، ٢) خطط المقريزى . جـ ١ ص ١٢ .

(٣) المغرب فى حلى المغرب . لابن سعيد ص ٢٧٢ جـ ١ ط . جامعة فؤاد الأول . مصر ١٩٥٣ م .

ولم يكن "قاضى البقر" وحده فريدا فى هذه السخرية، فالشاعر أبو هريرة أحمد بن أبى العصام من شعراء الدولة الإخشيدية يسير فى هذا الاتجاه، بل كان أشد تهكما وسخرية بدينه من زميله، فها هو يصف مجلس الشراب بقوله :

مجـــلسٌ لايـــرى الإلـــهُ بـــه ... غـــير مُصَـــلٍّ بلا وضـــوءٍ وطُـــهْرِ
سُـــــجَّدٌ للكـــؤوسِ مـــن دونِ ... تســـبيحٍ ســـوى نغمةٍ لعـــودٍ وزمْرِ
أنا أشـــهَى الأنـــامِ فـــى مـــثلِ ذا ... المجـــلسِ لامجـــلسَ نهـــىٍ وأمرِ(١)

وهذا الاتجاه تفسره لنا نزعة التقليد التى انتهجها شعراء مصر، وساروا عليها، فلاشك فى أنهم حاولوا أن يترسموا خطى كبار الشعراء ومن بينهم أبو نواس الذى زار مصر وتأثر به أدباؤها :

٥ - الغـــزل :

عندما أخذت بواكير الشخصية المصرية تتجلى فى الأدب كان فن الغزل فى الشعر العربى قد مر بأطوار تميزت عندها الثلاثة ألوان : الغزل الحسى، والغزل العفيف، والغزل بالغلمان .

وكانت غلبة لون من ألوان الغزل فى عصر من العصور أو بيئة من البيئات تعبيراً صادقا عما ساد فيها من قيم سياسية أو اجتماعية، وأصبح بذلك مرآة للشخصية تبدو من خلاله السمات الفنية أو الروح العامة التى غلبت على الأدب.

وقد شهدت هذه المرحلة نماذج من فن الغزل المصرى منها ما وصف فيه ابن طباطبا علاقته بمحبوبته التى تعيره بالنوم ولو كان محبا حقيقة لرافق السهاد ولكنه يدافع عن نومه، لأنه يرجو أن يسعد من خلاله باللقاء

عـــيَّرتنى بالنـــومِ جُـــورا وظُـــلما ... قـــلتُ : زدتِ الفـــؤاد همًّـــا وغمًّا
لـــم أنـــمْ لـــذة، ولانعـــــتُ إلا ... طمعـــا فـــى خـــيالك أن يلـــما(٢)

ووقف جعفر بن حذار الشاعر المصرى وكاتب ابن طولون يحاكى شعراء بغداد فى

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد حـ ١ ط جامعة فؤاد الأول مصر ، ١٩٥٣ ص ٢٧٣
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى حـ ص ٣٧

وصف القيان، وقد أعجبته قينة وأثارته بمفاتن جسمها وجمال وجهها وعذوبة صوتها فقال :

جادتْ بوجهٍ كأنَّه قمرٌ ... على قوامٍ كأنَّه غُصُنُ

ترنو بعينين من ليانهما ... من وسنٍ في جفونها وسَنُ

غنَّتْ فلم يبقَ فيَّ جارحةٌ ... إلّا تمنَّت لو أنَّها أُذُنُ (١)

ويقول :

كم بين نادى وبين لما ... وبين بون إلى ذما

من رشأٍ أبيضِ التراقي ... أغيدَ ذى غُنَّة أجمّا

وطَفْلةٍ رخْصةِ المرانى ... ليستْ تُجلى ولا تُسمَّى

إلا وسِلْكٌ من اللآلى ... تُعْجِزُ من يُخرِجُ المعمَّى

صغْرَى وكُبْرَى إلى ثلاث ... وأرضِ برم وأرض رما

من طفلة بضَّةٍ لعوبٍ ... تلقاك بالحُسْنِ مُسْتَتِماً

منهن ريا وكيف ريا ... ريا إذا لاقتِ المشما

لوشمَّها طائرٌ بدوٍ ... لخرَّفى الترب أوَلهَمَّا (٢)

وإذا تأملنا هذه النماذج من فن الغزل رأيناها عاجزة عن تصوير الشخصية المصرية، فهى لاتعبر عن الروح المصرية التى عرفت بتدليلها المرأة وتكريمها تكريما أثار اهتمام دراسى تاريخها منذ أقدم العصور، ولا ينتزع صوره أو تشبيهاته من البيئة المصرية، ولايصف العلاقة بين الرجل المصرى والمرأة المصرية سواء من الناحية الحسية أو المعنوية.

وقد خلت أفكارهم من الجديد الذى يمكن نسبته إلى البيئة المصرية بل جاء فى بعض معانيها فتور إذا قورنت بالمعانى التى رددها من قبل بعض الشعراء الكبار . فقول ابن طباطبا :

لم أنم لذة ولا نمت إلا ... طمعا فى خيالكم أن يلما

مسبوق بقول المجنون :

وأنى لأستغشى ومابى نعسة ... لعل خيالا منك يلقى خياليا

(١) معجم الأدباء لياقوت مطبعة الموسوعات العربية القاهرة تحقيق وزارة المعارف حـ ص ٣٨٥

(٢) العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، حـ ٣ ص ١٢٦ .

ولعل البيت الثاني أصدق في تصوير حالة المحب المستغرق فالمجنون لم ينم وإنما استغشى، وفي النوم راحة البلداء، وفي الاستغشاء هزة المرض. ورعشة المحمومين والمجنون ينفي النعاس لأن فيه اختياراً، والاستغشاء فيه غلبه، والمحب الصادق مغلوب على أمره أكثر منه مختارا ينام كيف ومتى يشاء، والمجنون يرجو أن يلتقي بخيال ليلاه، وابن طباطبا يطمع أن يلم خيال حبيبته به، وفرق بين الرجاء والطمع وبين إلمام الخيال، وتعانق الخيال بالخيال في سبحات حالمة.

ولعل "ابن حذار" في أبياته التي وصف بها قينته كان مقلدا لهذه النزعة الجديدة التي ظهرت في العصر العباسي من وصف القيان، بعد أن أصبحت تجارتهن منتشرة في العصر العباسي، وساعد الثراء على انتشارها.

وأكاد أحس ترديده المعاني التي قالها ابن الرومي في وصف المغنية (وحيد) ، وأبيات (جعفر بن حذار) السابقة متكلفة سقيمة لاتمت إلى خفة الروح المصرية بصلة، ويؤيدني تقديم ابن عبد ربه لهذه القصيدة بقوله : وقد يأتي من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعراء منفرد في غرائبه (١) .

٦- المديـــح :

لم ينل غرض من أغراض الشعر العربي اهتماما مثل ماناله غرض المديح، فقد كان هدف الحكام والسلاطين، ومصدر أرزاق الشعراء ، ومن ثم فإن معظمهم طرق باب المدح كل على قدر جهده وإمكانياته، وربما كان اهتمامهم بهذا الفن على حساب غيره من الفنون الأخرى، ونظرا لارتباطه بالسلطة الحاكمة فإنه سجل كثيرا من الأحداث التي تدور في هذا المحيط وخاصة الأحداث السياسية.

ومن جهة أخرى، فإن هذا الفن عبر عن بعض الخصائص الإقليمية في عصر من العصور حيث أشاد بالقيم الفاضلة ومدح بها، كما وصف القيم الرذيلة ونفاها عن الممدوح، فإذا لاحظنا أن هذه القيم كانت مختلفة باختلاف العصر والبيئة أدر كنامدى تصوير هذا الغرض لبعض سمات الشخصية.

---

(١) المرجع السابق

وعلى ضوء ماتقدم نستطيع أن نتأمل الشخصية المصرية فى فن المديح خلال هذه المرحلة فالشاعر (منصف بن خليل المعازلى) يرسم فى مدائحه لابن طولون خريطة لحدود مصر السياسية الممتدة إلى برقة والشام والحجاز فى قوله :

يا غُـرَّةَ الدنيـــا الـذى أفعـالُـــه ... غُـــرَرٌ بهـــا كل الـــورى تتعلَّقُ

أنـت الأمـــيرُ على الشـأم وثغـرها ... والرُّقـــتين وماحـــواه المشـــرقُ

وإليك مـصـــرٌ وبرقـــةٌ وحجـــازُهَا ... كـــلٌّ إليـك فـؤادُه متشـوِّقُ (١)

وقد عكس هذا الفن بعض القيم الى اعتزت بها الشخصية المصرية ومن أهمها القيم الدينية (فقعدان بن عمر) يمدح ابن طولون قائلا :

حـــاطَ الخـــلافةَ والدنيـا خليفتُنـــا ... بصارمٍ من سُـيُوفِ اللـهِ صَمْصَامِ

يا أيُّهـــا النـاسُ هُبُّوا ناصـــرين لـــه ... مع الأميرِ بدُهْمِ الخَـيْلِ فـى الـلامِ

ليســـتْ صـلاةُ مصـلِّيكم بجـائزةٍ ... ولا الصِّـــيامُ بمقـــبولٍ لصـيَّامِ

حـــتى يرى السَّـيِّدُ الميْمونُ نُبـكُمْ ... عن الإمام بأطرافِ القنا الدامى(٢)

ومهما تكن قيمة الشعر فى هذه المرحلة المبكرة فإنه يعد باكورة الأدب العربى الذى اتخذ لنفسه عدة مسالك عبر خلالها عن ميلاد الشخصية المصرية فى الأدب العربى، فسجل كثيرا من الأحداث السياسية الاجتماعية التى وقعت فى هذه الفترة، ونأى عن استخدام الأساليب الشعرية التى سادت فى العصر الجاهلى والأموى، واستوحى بعض صوره وأفكاره من البيئة الطبيعية والاجتماعية فى مصر.

والحق أن أدب هذه المرحلة لم يصور البيئة المصرية تصويرا كاملا فقد نجد أسماء بعض الأماكن المصرية، واسم مصر نفسها، ولكنه لايتجاوز سرد الأسماء، وأما النيل فكان وحيه ضعيفا إلى الأدباء على الرغم من قوته وسحره وخيراته ووضوح آثاره واختلاف أحواله على مدى العام .. ويتساءل الدكتور عبد الرازق حميده عن السر فى عدم تعلق الأدب العربى المحض بالآثار والعجائب التى كانت معروفة بمصر والتى تحدثت عنها كتب التاريخ، وروى المسعودى

---

(١) الولاة للكندى ص ٢٣٨

(٢) الولاة للكندى ص ٢٢٧ .

كثيرا من أخبارها ؟ ولماذا لم يقف عندها شعراء العرب باكين الأطلال والدمن ؟ وما عذر الطولونيين ومن بعدهم فى إهمال أدب الآثار القديمة ؟ بعد أن رأوا ما ظهر منها وكشفوا كثيرا مما بطن، وكان عندهم المثال الذى يسيرون على طريقته وهو سينية البحترى فى وصف إيوان كسرى وغيرها ؟

ويجيب على ذاك بقوله :

إن الأدب العربى المحض كان أسير التقاليد فلم يتجه إلى وصف الآثار القديمة مع كثرة مارأى العرب منها فى مصر والعراق والشام والأندلس، ولم يشغل الأدباء أنفسهم بوصفها أو الاتعاظ بها، ولم يتركوا شيئا من الأدب حولها إلا نادرا ثم إن وقوف العرب على الأطلال والدمن كان وقوفا تثيره ذكريات الأحباب وماضى الشباب، وبلى الأطلال وارتحال أهل الديار.

أما هنا فالآثار ألغاز وطلاسم لايفهمون أسرارها، ولاتثير عواطفهم عند رؤيتها، ولايتصل تاريخهم بها لأنهم غرباء وفدوا عليها للمديح وما وراءه من عطاء، بل إن بعضهم كان يعد قصائده قبل أن يراها.(١)

حقا إنهم وقفوا على بعض الآثار التى شهدوا عزها وذلها ورأوا عظمتها وفعل الأيام بها، وظهر ذلك فى رثاء "ابن نافع" للدار المذهبة التى كانت لآل عبد العزيز بن مروان. وما مر من رثاء دولة الطولونيين وآثارهم، ولكن وقوفهم على تلك الآثار كان شبيها بالوقوف على الأطلال فكان ما أصابها داعيا إلى بكائهم والدهشة لما كانت تحويه من سحر وعبقرية وشبه ذلك.

---

(١) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين : د . عبدالرازق حميدة ص ٢٧٥ .

الفصل الثالث

ظهور بواكير الشخصية المصرية فى النثر

ميلاد النثر العربى بمصر :

عرفت مصر النثر مقترنا بالإسلام، ومع انتشاره فى البيئة المصرية انتشرت العلوم الدينية، وما يتصل بها من دراسات منطوقة أو مدونة بأسلوب نثرى. ومنذ أصبحت مصر إمارة إسلامية وبها ديوان البريد، ولبعض أمرائها كتاب ينشئون لهم الكتب [1] . وكان بمصر بعض الخطباء البلغاء أمثال عمرو بن العاص، وقيس بن سعد بن عبادة وعتبة بن أبى سفيان وغيرهم. وظهر فى مصر عقب الفتح الإسلامى لون من القصص الدينى متصلا بتفسير القرآن وسيرة الرسول (ص). وأول من قص بمصر هو "سليم بن عتر التجيبى"، الذى تولى القضاء بمصر فترة طويلة، واتخذ من مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط مركزاً لنشاطه منذ عام ٣٩ هـ [2] . ومع ذلك فإننا لا نلتقى ببواكير الشخصية المصرية فى النثر العربى إلا بعد أن نطوى قرنين ونصف قرن من تاريخ مصر الإسلامى. فالنثر العربى الذى استخدمته الدواوين الرسمية والذى استخدمه العلماء المسلمون طوال القرنين الأول والثانى الهجرة فى مصر لم يكن نثرا فنيا .. وإنما عرفت مصر هذا اللون من النثر فى عصر الطولونيين على يد الكاتب المعروف "ابن عبد كان". ولم ينصهر موروث مصر من الفن القصصى فى بوتقة النثر العربى، فالأدب المصرى قبل الإسلام غنى بالقصة، غذته روافد الحضارات الفرعونية واليونانية والرومانية والفارسية والمسيحية، ومع ذلك لم يقبل العرب على هذا الفن.

ويبدو أن موضوع هذه القصص لم يشد انتباههم إليها، وبعضها لم يجد طريقه إليهم، كالقصص الفرعونية المدونة بالهير وغليفية والديموطيقية إذ لم يكن هناك من يقرؤها، وبعض القصص المصرية كان مستقرا فى المقابر وعلى جدران المعابد بلغاتها الفرعونية القديمة، وبعضها الآخر كان فى أذهان المصريين وعلى أفواههم، لكن المسلمين عجزوا عن معرفة المكتوب وأهملوا شأن المتناقل شفاهة.

---

(١) خطط المقريزى حـ ط بولاق ، ص ٢٦٦ .

(٢) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين . د . عبدالرازق حميدة ص ٥٤ .

ومن القصص المصرى قبل الإسلام ماكان مدونا بلغات معروفة كالقصص القبطى المكتوب باليونانية أو الرومانية، ولكن قراء هذه القصص لم يكونوا عربا، ومن كان يعرف هذه اللغات من العرب على قلتهم كان يقرأ لنفسه لاليترجمه. وكان العرب يعتزون بأدبهم، فلم يكونوا بحاجة إلى ذلك الأدب الذى لايلائم أمزجتهم، خاصة وأن فى بعضه رائحة الوثنية أما القصص الشعبية التى كانت شائعة عند عامة الشعب فكان طريقها إلى الأدب العربى أن تترجم وتحكى فى ندوات أو أسمار ولعل شيئا من ذلك قد حدث، ولكن الأدب العربى نفسه فى مصر لم يلق كثيرا من اهتمام الرواة إلا فى ظروف خاصة ولم تكن لتلك القصة قيمة أدبية تجعل رواة الأدب يحرصون على تدوينها فى عصور التدوين. كما لم يهتم العرب كثيرا بهذه القصص فى أى بلد من البلدان التى فتحوها، لا فى فارس ولا الروم ولا المغرب ولا الأندلس، حتى إذا نبغ من أبناء تلك الأمم من يجيد العربية، ويهتم بأدب قومه كابن المقفع وسهل بن هارون عنوا بترجمة قصصهم وأساطيرهم وتاريخ بلادهم (١) .

وظل فن القصص المصرى واقفا عند حدود الوعظ الدينى، وما قد يتخلله من أهداف سياسية حتى طالعنا العصر الطولونى بمحاولات قصصية ضمنها الكاتب "أحمد بن يوسف بن إبراهيم" المشهور بابن الداية كتابه "المكافأة"، وقد تخير قصصه من أمم وعصور وبيئات مختلفة، واشتملت على أخبار السادة والعامة وصورت بعض ملامح عصرها.

ومنذ العصر الطولونى - أيضا - أخذ المصريون يمارسون فن السير الذى يعتمد على رواية حوادث وقعت لصاحب السيرة لإبراز شخصيته أو جوانب منها .. وهو فن مصرى عرفته مصر منذ عهد الفراعنة، وظهر فى العهد القبطى مسجلا فيما تركه البطارقة من سير الآباء والقديسين السابقين. وظهر هذا الفن واضحا فى مصر الإسلامية، فكتب (ابن الداية) سيرة أحمد بن طولون، وسيرة ابنه أبى الجيوش، وكتب (ابن زولاق) سيرة كافور الأخشيدى وسيرة سيويه المصرى وغيرهما.

---

(١) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين . د . عبدالرازق إبراهيم حميدة ص ٧٢ .

مظاهر الشخصية المصرية وآثارها فى فنون النثر

١- الرسائل :

صورت الرسائل الديوانية بعض الجوانب السياسية فى الشخصية المصرية، من ذلك :

ثورة العباس على أبيه أحمد بن طولون [١] ، فقد انتهز العباس فرصة خروج أبيه من مصر مع جيشه إلى بلاد الشام فثار عليه، ولما علم بقدوم أبيه خرج مع أعوانه إلى (برقة)، وحاول ابن طولون أن يستميل ابنه فكتب إليه كتاب الأمان، وبعث إليه وفدا يدعوه إلى الرجوع ويلاطفه، وكاد الوفد ينجح فى مهمته ولكن بعض أعوان العباس زينوا له التمرد. وكتب العباس إلى أبيه من إنشاء ابن حذار رسالة جاء فيها :

"إلى الأمير أبى العباس أحمد بن طولون، مولى أمير المؤمنين، من عبد الله مولى الله المتمسك بمناجى طاعة الله، المنحرف عن زيغ ظلم المعصية إلى وضوح سر البصيرة، القابل من الله موعظته، والعامل بما أمر به، إذ يقول جل ثناؤه :"يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين"، وقوله عز وجل: "ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، واتبع هواه".

سلام على الأمير، وعلى من استرجع وادكر، وفكر وازدجر، فإنا أحمد إلى الأمير الله لا إله الا هو، العاطف بى إلى أرفع سنن الهداية، والعادل بى عن ظلم سفه الجهالة، وأسأله صلاة تامة يخص بها وليه وخيرته من صفوته ورسوله صلى الله عليه وسلم. أما بعد، وفق الله الأمير لمحال رشده، وجنبه مقابح أمره، وسخرله الخلق عن غامض ذكره، فإن كتاب الأمير ورد عن الحائد منه عن سبيل العظة والتذكير إلى سبيل التهديد والتحذير، فبعد وقرب وأنس وهدد، وجمع وفرع، يبذل من نفسه باليسير فيها ويدعو إلى الصلة ويحدث غيرها، ويعرض من ماله للأنفس ويصير من خطابه الأنزر، ويعدد من واجب حقه ولازم مفترضه ما اعترف به مصدقا لمن اعترف بالطاعة محققا ... إلخ [١] ".

وقد أثارت هذه الرسالة أحمد بن طولون فكتب إليه الرسالة التالية من إنشاء كاتبه (ابن عبد كان) :

(١) انتهت هذه الثورة بفشلها سنة ٢٦٨ هـ وبسببها قتل الكاتب ابن حذار .

(٢) سيرة أحمد بن طولون . تأليف أبى محمد عبدالله محمد المينى البلوى . تحقيق محمد كردعلى . دمشق ، ١٣٥٨ هـ ، ص ٢٥٦

"من أحمد بن طولون، مولى أمير المؤمنين، إلى الظالم لنفسه العاصى لربه، المسلم بذنبه، المفسد لكسبه، العادى لطوره، الجاهل لقدره، الناكص على عقبه، المركوس فى فتنته، المنحوس من حظ دنياه وآخرته. سلام على كل منيب مستجيب، تائب من قريب، قبل الأخذ بالكظم، وحلول الفوت والندم. وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل، والطول الجليل، وأسأله مسألة مخلص فى رجائه، مجتهد فى دعائه، أن يصلى على محمد المصطفى، وأمينه المرتضى ورسوله المجتبى صلى الله عليه وسلم (أما بعد) فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها، والنحلة يكون حتفها فى جناحيها، وستعلم - ، هبلتك الهوابل - أيها الأحمق الجاهل، الذى ثنى على الغى عطفه : واغتر بضجاج المواكب خلفه - أى موردة هلكة بإذن الله توردت، إذ على الله جل وعز تمردت وشردت، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا "قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون" وإنا كنا نقربك إلينا، وننسبك إلى بيوتنا، طمعا فى إنابتك، وتأميلاً لفيئتك، فلما طال فى الغى انهماكك وفى غمرة الجهل ارتباكك ، ولم نر الوعظة تلين كيدك، ولا التذكير يقيم أودك، لم تكن لهذه النسبة أهلا، ولا لإضافتك إلينا موضعا ومحلا.

وليت شعرى على من تهول بالجنود، وتمخرق بذكر الجيوش، ومن هؤلاء المسخرون لك، الباذلون دماءهم وأموالهم وأديانهم دونك دون رزق ترزقهم إياه، ولا عطاء تدره عليهم. فقد علمت - إن كان لك تمييز، أو عندك تحصيل - كيف كانت حالك فى الوقعة التى كانت بناحية طرابلس. وكيف خذ لك أولياؤك والمرتزقة معك حتى هربت، فكيف تغتر بمن معك من الجنود الذين لا اسم لهم معك، ولا رزق لهم على يدك ؟ فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والمداراة لك والخوف من سلطانك، فانهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لايجدونه عندك، وإنهم لأحرى بخذلك. والميل إلينا دونك. ولوكانوا جميعا معك، ومقيمين على نصرتك، لرجونا أن يمكننا الله منك ومنهم، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم، ويجرينا من عادته فى النصر وعزاز الأمر على مالم يزل يتفضل علينا بأمثاله، ويتطول بأشباهه" (١) .

وكما سجلت رسائل هذه الفترة طرفا من الفتن الداخلية فإنها أعطتنا صورة عن العلاقات الخارجية التى كانت موجودة بين ملك الروم ومحمد بن طغج الأخشيدى، فقد بعث

(١) صبح الأعشى جـ ٧ ص ١٠ ومابعدها ، وسيرة ابن طولون ، ص ٢٩٠ ومابعدها

الأخشيدى على لسان كاتبه محمد إبراهيم بن عبد الله النجيرمى إلى أرمانوس ملك الروم رسالة يقول فيها :

"من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين إلى أرمانوس، عظيم الروم ومن يليه : سلام بقدر ما أنتم له مستحقون، فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم، (أما بعد) فقد ترجم لنا كتابك، الوارد مع نقولا وإسحق رسوليك فوجدناه مفتتحا بذكر فضيلة الرحمة، وما نمى عنا إليك، وصح عن شيمنا فيها لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا، وماوصلت به هذا القول من ذكر الفداء، والتوصل إلى تخليص الأسرى، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه. فأما ما أطنبت فيه من فضيلة "الرحمة"، فمن سديد القول الذى يليق بذوى الفضل والنبل، ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون، وإليه راغبون، وعليه باعثون، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون، وبه متواصون وعاملون، وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور، وجوامع المصالح بمنه وقدرته. وأما مانسبت إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة، فإننا نرغب إلى الله جل وعلا الذى تفرد بكمال هذه الفضيلة، ووهبها لأوليائه، ثم أثابهم عليها، أن يوفقنا لها : ويجعلنا من أهلها، ييسرنا للاجتهاد فيها والاعتصام من زيغ الهوى عنها، ووعورةالقسوة بها، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفا على طاعته، وموجبات مرضاته، حتى نكون أهلا لما وصفتنا به، وأحق حقا بما دعوتنا إليه، وممن يستحق الزلفى من الله تعالى فإنا فقراء إلى رحمته، وحق لما أنزله الله بحيث أنزلنا وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا، بمولانا أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – أن يبتهل إلى الله تعالى فى معونته لذلك ، وتوفيقه وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده "ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور" (١) .

وقد تميزت رسائل هذه المرحلة بخصائص أهمها :

(أ) – بدء الرسالة بالدعاء غالبا : وهى على أنماط منها الدعاء بطول البقاء وما فى معناه، كالدعاء بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة، ومنها الدعاء بكبت العدو، وغير ذلك من الأمور وقد صدر (ابن عبد كان) إحدى مكاتباته بهذا الدعاء.

---

(١) صبح الأعشى جـ ٨ ص ١٦٠ وما بعدها

"أطال الله بقاءك ففى إطالته حياة الأنام، وأنس الأيام والليالى، وأدام الله عزك ففى إدامته دوام الشرف ونمو المعالى. وأتم نعمته عليك فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق، ونزلت منزلة الاستيجاب ووقفت على من لاتكون الآلاء مكانه، ولاتنكر الفواصل محله" (١) .

ويقرر الدكتور محمد حسين أن هذه الطريقة لم تكن معروفة من قبل فى النثر العربى، وإنما وجد نظيرها إبان القرن الثالث الهجرى عند الكتاب العراقيين.

(ب) – المبالغة فى العناية بالأسلوب. وقد وضح هذا الاتجاه فى الكتابة المصرية منذ العصر الطولونى واستمر فى ازدياد طوال العصور اللاحقة، ويعلل الدكتور محمد كامل حسين هذه النزعة فى الأسلوب بتأثر الأدب المصرى بالأدب اليونانى ويذكر أن مصر كانت يونانية قبل الإسلام وانتشر بها الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية، ولاشك أن هذه الدراسات تركت أثر فى العقلية المصرية دام عدة قرون فاستقر فى البيئة المصرية، مع أننا لانجد من بين المصريين من اهتم بكتب الفسلفة اليونانية كما اهتم غيرهم، وأيضا لم يقبل المصريون على الفسلفة اليونانية فى مصر الإسلامية إقبال غيرهم عليها. ويشير إلى تشابه طريقة الكتابة المصرية والعراقية ممثلتين فى مدرستى (ابن عبد كان) و"الجاحظ". وأن (ابن عبد كان) كان يقسم رسائله إلى أجزاء وفصول ويميل إلى الإطناب الذى لا يبلغ حد الملل والثقل . ويقحم الدعاء حشوا معترضا فى كلامه ويتوجه إلى المخاطب بصيغة الفرد دائما ويزين جمله القصيرة بالسجع غالبا (١) .

ويبدو لى أن طريقة الكتابة المصرية التى ظهرت فى القرن الثالث الهجرى بأسلوب عربى يحاكى فى قوته أسلوب الكتابة العربية فى الأقطار الأخرى بل وفى عاصمة الخلافة الإسلامية نفسها ليس أثرا مباشرا من آثار الثقافة اليونانية كما ذهب الدكتور محمد كامل حسين، وإنما امتداد لتأثر الحياة الأدبية فى مصر بالثقافة العربية الوافدة من الحجاز والشام وبغداد، وإذا كانت هناك آثار لأية ثقافة أجنبية فى اللغة العربية فإن مصر قد تلقتها فى إطار الحضارة العربية الوافدة.

ولم تنشأ الكتابة الديوانية فى مصر نشأة تدريجية كالشعر مثلا. ولو كان تأثير الثقافة اليونانية فى الأدب العربى قد تم فى البيئة المصرية لظهر أثره تدريجيا مبتدئا بالتعرف على

(١) فى الأدب المصرى الإسلامى د محمد كامل حسين ص ١٠١
(٢) فى الأدب المصرى الإسلامى د . محمد كامل حسين ص ٩٥

هذه الآراء ثم نقلها إلى اللغة العربية. وبعد ذلك يأخذ التأثير صورا بسيطة حتى تتضح ملامحه فيما بعد كما حدث مثلا فى العصر الحديث عندما أخذت فنون أدبية أجنبية دورها بين صفوف أدبنا العربى كالقصة والمسرحية وغيرها.

وإن أسلوب مدرسة "ابن عبد كان" المصرية أقرب – فى نظرى – إلى خصائص مدرسة عبد الحميد الكاتب، وليس إلى خصائص أسلوب الجاحظ، فقد نلاحظ على الثلاثة احتفاءهم بعنصر التطويل والتقسيم ولكن الإطالة عند الجاحظ كثيرا ما تخرج به عن موضوعه الأصلى، ويطيل إطالات قد يشعر هو نفسه بذلك فيعتذر عنه وفى كتاب "الحيوان" صور مختلفة لهذه الظاهرة.

أما عبد الحميد الكاتب، وابن عبد كان فكانت إطالتهما مرتبطة بالموضوع، ومن ناحية أخرى فإن صلة عبد الحميد الكاتب وأحفاده بالبيئة الأدبية المصرية أوثق من صلة الجاحظ بها، فقد سبق القول بإسهام بعض أحفاد "عبد الحميد الكاتب" فى تنمية الحياة الأدبية فى مصر بعد مقتل عبد الحميد بها واستقرار أسرته فيها (١).

إن الشخصية المصرية تعبر عن أصالتها الثقافية بعدة وسائل من بينها عنصر الاختيار والتمصير وقد مارست مصر هذا العمل منذ بداية احتكاكها بالأدب العربى.

وأرى أن الدافع الذى جعل الدكتور محمد كامل حسين يرد خصائص الكتابة الفنية فى مصر إلى التأثير اليونانى الذى ساد فى البيئة العلمية المصرية منذ عصر البطالسة هو حرصه على إثبات أصالة الشخصية المصرية فى أدبها وأن مميزاته نبت أصيل من وحى البيئة ومؤثراتها الثقافية. ولعل حرصه على إثبات هذه الفكرة دفعه إلى المقارنة بين خصائص الكتابة المصرية والكتابة العراقية خاصة وأنه قد وجد تشابها مابين سمات كل منهما واستثنى تأثير الثقافة الفارسية فى أسلوب الكتابة العربية، مع أن كثيرا من الدارسين يشيرون إلى تأثير هذه الثقافة الأخيرة فى الأدب العربى، بل يجعلونها أساسا فى تطوير أسلوب الكتابة الديوانية التى ظهر بها عبد الحميد الكاتب وإن كان الأستاذ أنيس المقدسى

---

(١) راجع هذا الكتاب ص ٧١ .

يخالف هذا القول، ويرى أن تطور أسلوب عبد الحميد الكاتب تطور طبيعي للكتابة العربية في هذه المرحلة من تاريخها [1] .

وقد نسب دارسو النثر العربي إلى القاضي الفاضل ومن سار على نهجه مدرسة متميزة في الكتابة الديوانية، وعدوها مرحلة جديدة من مراحل تطور أسلوب الكتابة العربية ولكن الدكتور محمد كامل حسين، والدكتور شوقي ضيف يذهبان إلى أن هذه الطريقة التي نسبها كثير من القدامى والمحدثين إلى القاضي الفاضل، ليست جديدة كل الجدة على الكتابة المصرية، بل إن أصولها ممتدة إلى البراعم الأولى من الكتابة المصرية في النثر العربي، فالقاضي الفاضل لم يأت بجديد يستحق به أن تنسب إليه مدرسة أو يقام له مذهب ، ولم يكن في كتابته إلا تلميذا وفيا للمدرسة .. التي نشأ فيها على أيدي كبار كتاب العصر الفاطمي، ولم يكن هؤلاء سوى محاكين للمدرسة الأولى التي أبدعها في مصر "ابن عبد كان" مع شيء من التطوير لم يخرجها عن أهم خصائصها، وجوهر سماتها التي بها ميزها الناقدون عن غيرها من المدارس [2] .

٢- القصص :

من خلال المجموعة القصصية في كتاب المكافأة نلتقي ببعض ملامح الشخصية المصرية وخاصة الجوانب الاجتماعية والنفسية.

فقد صورت إحدى القصص حالة الغلاء واضطراب الرعية بسبب أزمة وقعت في زمن أحمد بن طولون، وأنه ركب، وتقدم لمعاقبة القماحين وازدحمت النظارة من السطوح عليه.

ونرى فيها صورا من عادات الناس وأخلاقهم، وكاهتمام قابلة أولاد خمارويه بحلوى العيد من أجل صبيانها، وذهابها إلى أختها كي تقترض منها مالاً تشتري به هذه الحلوى وفيما يلي تتجلى الشخصية المصرية من خلال هذا الفن القصصي :

وقال ابن الداية : حدثني أحمد بن سقلاب قال : كان بمصر رجل من الفقهاء مشهور الاسم وله حلقة عظيمة بالجامع. فبينما هو في صدرها إذ وافى علان بن المغيرة، فلما رآه مقبلا نحوه قام إليه على رجليه ثم خطا إليه حتى لقيه فأكبرت الجماعة قيام شيخ مثله إلى حدث مثل

---

(١) راجع تطور أساليب النثر العربي . أنيس المقدسي . ١٤٨ ومابعدها لبنان ، ١٩٦٨ م

(٢) راجع : (أ) الفن ومذاهبه في النثر العربي . د . شوقي ضيف .

(ب) أدب مصر الإسلامية عصر الولاة د . محمد كامل حسين . ص ١١٥ وما بعدها .

علان، وتحفيه به وعرض نفسه عليه، وإنه لم يدع شيئا يفعله تابع بمتبوع إلا بذله، وأسررنا الموجدة عليه. فلما قام علان قال لجماعتنا ما أعلمنى بما أضمرتم ولكننى أريكم عذرى فيما خرجت إليه :

كانت عندى ألف دينار وديعة لرجل بالمغرب، وقد طال مقامها، وطالب زوج ابنتى بإدخال امرأته عليه فجلست أمها بحضرتى. فقالت لى : ماالذى تراه فيما قد ألح فيه هذا الرجل ؟ فقلت لها : نستعمل فيه التجوز فقالت لى : لنا حساد نخاف شماتتهم، ولابد أن تعيننى على هذا التجمل. فقلت : إن كان ماتريدين فى قدرتى لم أبخل به عليكم. قالت : هو فى قدرتك. قلت : ماهو ؟ قالت : تمكننى من هذه الوديعة ونحتاط فيما نبتاعه من الجهاز حتى يصل إلينا ثمنه فى أى وقت أردناه، وندخل هذه الصبية على زوجها فإن جاء صاحب الوديعة بعنا مااشتريناه، ولم نضع فيه إلا مايسهل غرمه. قلت : هذا قبيح عند الله وعند خلقه.

فلم تزل تلح بى، وتحتال على حتى أجبتها. فجهزت ابنتها بجميع المال، وأدخلتها على زوجها. فلم يمض بنا بعد ذلك إلا شهران حتى وافى صاحب الوديعة يطلبها. فقلت لها : ماتفعلين ؟ فقالت : امض فاحمل المتاع وبعه، فمضت إلى ابنتها ورجعت إلى فقالت : لاتشغل نفسك بهذا المتاع، فقد حلف زوجها بطلاقها أنه لايخرج منه شىء عن منزله.

فسقط فى يدى ورأيت الفضيحة فى الدارين متصدية لى . فوضع إفطارى بين يدى فلم أطعم واعترانى ماخفت منه على عقلى، وبت ليلة مابت مثلها، وأنا أتبين سهولة ذلك على زوجتى فى جنب ما أحرزته لبنتها. ثم انتهيت قبل الفجر بمنازل، فصحت بالغلام : أسرج لى. فقام وأسرج وقال : ياسيدى أين تمضى ؟ فقلت : ليس لك الاعتراض على . وركبت وسرت بطوع عنانى فلم يزل بغلى يسير حتى دخلت زقاق "علان بن المغيرة". فوقفت على باب داره وصاح الغلام بالبواب وعرفه بموضعى فسمعت حركة فى داره، ثم فتح الباب وأذن لى بالدخول عليه فوجدت بين يديه شمعة وهو يكتب جوابات كتب وكلائه. فلما رآنى قام إلى، وقال لمن حضره من الغلمان : تنحوا. وأقبل على فقال : والله لو بعثت إلى لسرت إليك ولم أجشمك السعى إلى، فاشرح لى أمرك. فغلبتنى العبرة، وحالت بينى وبين الكلام. فمازال يسكننى حتى قصصت له إنفاق الوديعة. وهو مغموم بأمرى من ثم قال : فكم هذه الوديعة ؟ فقلت : ألف دينار. فضحك وقال : فرجت والله عنى ! ماتوسمت أنى أملكها، فكان الغم يقع بها ! فأما وهى فى القدرة فما

أسهلها على، وأخفها لدى ؟ ثم قال لغلامه : جئنى بتلك الصرار التى وردت علينا من المغرب فى هذا الشهر، فجاء بأربع صرار، فنظر فيما عليها وجمعه، وقال : هذه ألف وخمسمائة دينار، ألف للوديعة وخمسمائة يصلح بها مابينك وبين من عندك. ثم قال لى : متى أشكر إفرادك إياى، بعد الله عز وجل ذكره، بتأميلى فى حادثة حدثت عليك، فأعاننى الله على مكافأتك؟

وأضاف إلى من خفرنى إلى منزلى.

فقالت الجماعة : قد سمعنا عذرك وعلينا عهد الله إن لقيناه أبدا إلا قياما " (١) .

ونلمح من خلال القصة السابقة بعض السمات المعبرة عن الشخصية فبطل القصة كما صوره القاص رقيق الطبع مجيب لنداء زوجته، حريص على رضاها، وبهذه الروح يتسم الرجل المصرى فى علاقته مع زوجته والبطل وزوجته حريصان على بناء الأسرة، والكيان الأسرى مقدس فى نظر الشخصية المصرية، والبطل رجل قوى العواطف تجيبه دموعه عندما أخذ يصورلصاحبه الموقف الحرج الذى وقع فيه.

ويسبغ المؤلف هذه الروح العاطفية على الشاب (علان بن المغيرة) الذى قصده الشيخ ليستدين منه، فقد تأثر بدموع الشيخ، وانطلق بسخاء يغدق على الشيخ من ماله وعواطفه. ليفرج كربته ويثلج صدره.

والموقف الذى اتخذه البطل بعد أن أخبرته زوجته برفض زوج ابنتها موقف مصرى، فلم ينكر وديعة صاحبه، ولم يعلنا حربا على زوج ابنته، ولكنه وضع الحل السلمى الذى يتمسك بكل الروابط والعلاقات الإنسانية، وهو مصرى أصيل.

الخطابـــة :

عندما بدأت مصر دورها فى المشاركة الأدبية منذ عصر أحمد بن طولون كان سوق الخطابة العربية قد أوشك أن ينفض، إذ احتلت الكتابة مكان الصدارة فى الاستعمال، وأصبحت الخطب تعد كتابة ثم تلقى . يقول "ابن عبد كان" : لقد أمرنى أحمد بن طولون يوما بإنشاء كتاب يقرأ على المنبر فأنشأته : ودفعته إلى محبوب بن رجاء ليقرأه، وفى رسالة ابن طولون إلى ابنه العباس تهديد من الأب إلى ابنه بأن يرسل إلى الأقطار التى يحكمها كتبا تقرأ على المنابر

---

(١) كتاب المكافأة ص ٢٣ .

فيها لعن العباس والبراءة منه ينقلها آخر عن أول، وتخلد فى بطون الصحف وتحملها الركبان، ويتحدث بها فى الآفاق [1] .

وعرف النثر العربى منذ الجاهلية أدب الوصايا، ولمصر الفرعونية آثار عديدة فى هذا الفن، بل إن جل أدبها الفرعونى أدب وعظ وحكم وتربية ووصايا، وكان من المتوقع أن يتطلع المصريون إلى بعث هذا الفن ونشره.

وكان بمصر الإسلامية أدب وصايا غايته التوجيه والإرشاد، والحث على كسب المحامد أو التبصير بحسن السياسة أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق [2]

فإذا استعرضنا هذه الوصايا وجدناها تدور فى محيط ضيق لا يتجاوز الخلفاء أو الأمراء أو الولاة. ومع ذلك فقد نجد إشارات قليلة تنبىء عن فهم بعض الحكام فى مصر لبعض الجوانب السياسية فى الشخصية المصرية فأحمد بن طولون ينصح ابنه "أبا الجيوش خمارويه" بقوله :

"وقد خلفت لك رعيتك لا يطلبون منك إلا لين الجانب والأمن من المخاوف، ولم أكن أمنعهم لين جانبى بخلاً عليهم، ولكن آثرتك على نفسى، بمنعى لهم لين جانبى، ولأمن مخالفتى، فاستعمل أنت ذلك معهم فتملك قلوبهم، ويبادروا إلى طاعتك، ويهشوا إلى التصرف بين أمرك ونهيك فى صغير أمرك وكبيره [3] .

---

(١) الأدب العربى فى مصر من الفتح إلى زمن الفاطميين ، د . عبدالرازق حميدة ، ص ٤٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .
(٣) سيرة أحمد بن طولون البلوى ، ص ٢٣٩ .